جلال عبدوكا

دموع دامية

(رواية)

أربيل - عنكاوا

٢٠٢٢

- اسم الكتاب: دموع دامية
- اسم المؤلف: جلال عبدوكا
- التنضيد: المؤلف
- الطبعة الأولى: ٢٠٢٢
- المراجعة اللغوية: موفق حداد
- تصميم وإخراج المتن: كوثر نجيب
- تصميم الغلاف: نياز شامايا
- الطباعة: مطبعة الدباغ
- عدد النسخ: ٥٠٠ نسخة
- رقم التسلسل: (٦٢) سلسلة الثقافة السريانية
- رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات/ إقليم كوردستان (٩٥٢) عام ٢٠٢٢

الناشر

المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية
General Directory of Syriac Culture and Arts

الكتاب يعبّر عن رأي كاتبه ولا يعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.
حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ولا يجوز طبع أو استنساخ الكتاب أو جزء منه إلا بإذن الناشر.

(رواية)

دموع دامية

جلال عبدوكا

الإهداء

١- الى زوجتي وأفراد أسرتي عانوا مشقة إنفرادي أُعايش تدوين آلام الرواية طيلة سنة أو أكثر.

٢- الى كل من ساندني بخبراته إخراجا وتصميما ومراجعة.

٣- إلى النفوس الأبية التي لا تركع للضيم أبدا.

٤- والى كل من يخترق أسطر الرواية شوقا ليقف الى نهايتها، ليشارك دموعه مع دموع أبطالها. أسجل تقديري واحترامي!

المؤلف / تموز ٢٠١٩

مقدمة المؤلف

لماذا هذا العنوان المثير لرواية غايتها الخدمة العامة، هل من يخدم يجب أن تناله سهام الغدر، إن كان الإخلاص في إستخدام الضمير مبعث الحسد والغيرة لدى الغير، فإن الأخلاق الرشيدة تفوز في النهاية دون شك إن تحلت بالعزيمة.

كلما ألتمس شوقي للكتابة تنتابني الحيرة كيف أبدا، وبماذا أبدا، زمن الخيالات يقودنى على مدى اسبوع أو اكثر، أيٌّ المواضيع على أن اختار، يقول أبو نؤاس:

" ان الحوادث كالرياح عليك دائمة الهبوب"

عندما تتعاظم الهموم بصرخة مدويةٍ تعبيرا عن آلامٍ تهبط فجأة على كاهل البشر، تُسَطِّرُ الدموع لحالة تختلط بالدماء، وهي ذروة إستنفار تحمل الجسد والعقل ، في ظل نظم الإستبداد تنتعش الهموم وتتقلص فرص الإبداع، عموما المعضلات سهلة التشخيص، لكن الصعوبة تكمن في تحديد سبل علاجها، قادة معظم البلدان المتخلفة يتلذذون بشنق معالم الإخلاص والنزاهة بسبب المخلفات العقلية الساذجة التي تغزو تفكيرهم، شلٌّ حركة المجتمع هي من أولويات إجتهاداتهم لأنهم لا يستمتعون للكلام الرشيد، مرارة الدواء هي التي تشفي المريض، فتجرعها من مسلمات مهنة المعالج.

محور القصة نُسِج بنفس المنوال، قد تذرف دموع الفرح والألم معا، قراءة ممتعة وأنت تتعايش محيط أحداث الرواية. أبطالها بلمحة بصر تنبذ نفسها بفعل فاعل، ثم وبفعل فاعل أيضا تعود لزمن ذهبيتها.

المؤلف / ٢٠١٩

(١)

كلّفت بدلة العرس جهد غريبة وصوفية وتصميم ماجدة وبهيجة بدعم ماليٍّ من لجنة تنسيق المدينة بقيادة العم نبيل، كان يوما سعيدا بعد زمن تعيس عاشته من قلدت نفسها إنتقام، ولم تمِل في حياتها لهذه الصفة اللعينة كي تنتقم مِمَن نصب لها الشِباك، مراحل نموها بدءاً من طفولتها وحتى إرتقائها أرقى مهنة إنسانيةٍ تحلت بمبدأ النزاهة والإخلاص، جرأتها وشجاعتها سواء ايام صباها أو في عز شبابها كانت مثارَ الجدل بين زملائها من الجنسين، ما أعارت لحاجز الجنس أهمية عند نقاشاتها في المدرسة أو في الشارع، خجل ذِكر اعضاء الجنسين مسحته من قاموسها، وبعفوية تتحدث مع والديها في الأمور الزوجية وكأنهم أصدقاؤها، في الوقت الذي توبخها والدتها أنها تتجاوز حدود الحياء المسموح للفتاة.

أمّا في مجال مهنتها تقدم للغني والمتكبر بمركزه الوظيفي مثلما تقدمه أيضا للفقير والمعتوه، المميز الوحيد في مهنتها أنها كانت صارمة مع زبائنها إذا حاولوا فرض شروطهم عليها.

الجمال هبة يمنحها بارؤك لمن يشاء ويضيف الى ثقافته قوة العزيمة وصلابة في الموقف لو خاض غمار دلالها، لكن السلوك السيء بالإغراء والإفراط بالدلال يمحو مميزاتها وتُعتبر

اساس كل مصيبة، الفتاة هي الأكثر رواجا لعرض هذه السلعة ولها روادها من قبل الشباب المتعطش لنزوة التودد، إذا كان تغيير سلوك الإنسان المنبعث بالنشاط صعباً، ربما بالظروف التي يختلقها العلم والمعرفة تُسَهِّلُ لدى المعالج إجراء تغيير جذري في مجمل سلوكه اليومي، والإنسان المنبسط ينفعل إيجابيا وبمرونة مع متطلبات محيطه دون إحداث ضجة وتوتر، ولكل حالة خصوصيتها قد تُقَدَّس.

يعتقد صاحبنا النبيل أن سعة الإدراك والعقل في الإنجاز نحو قدرته الذاتية على التعامل مع فكرة ما دون أن يتقبلها هي علامة النضج الفكري كما يقول ارسطو، ترى كم يجب أن تكون مساحة هكذا إستيعاب لتنال رضى وقبول لدى العامة من المؤازرين والمنافسين معا، لكن التفسير الفلسفي للشخص الذي ينال بل ويكسب ثقة الكل، إنما هو منافق لحد كبير، حتى قدرة رب العالمين تستقطب المتعاطف والمتمرد، لذا نقول أن الميل الشديد للتسامح يُعتبَرُ إجحافاً بحق العدل إن تغافله القانون! فكلما تُعَمِّم العراقيل والصعاب يتعود الناس على تقبل العذاب، وعذاب الأزواج غير المتجانسة أسرياً في الغالب تتصدر قائمة الهموم.

الزواج بقدرِ إستحقاقه القدسية التي منحتها له الأديان كذلك منحته الأعراف والقوانين، لكنه يبقى لدى البعض وسيلة إستمتاع للطرفين ولحين من الزمن، أمّا الإنجاب فيأتي في ذيل

قائمة غريزتهم، ليت سلطة التزاوج في كل المعمورة قد فنَّدت الفراق تصادق عليه إلاّ بعد التحري الرصين لمسبباته لئلاّ تتشتت الأسرة بين أفنية أزقةِ الشهوة والتسلط، كم سيغطي غلاف التضحية وكم سيدوم هكذا مصير من الزواج إن شاء القدر وفتحت الظروف أبوابها، فإن التفاهم والتناغم بينهم سيكون كتناغم المفترس لصيده، لدى بعض الشباب إن أفضل فتاة هي من تتناغم الرقص وفق ألحان، ويتسابقون ميدان الفوز بها ولا شأن لهم بما تتحلّى من صفات مثالية كالأخلاق والثقافة والمركز الإجتماعي، فجمالية جسدها هي الميزة المفضلة، هدفهم الأسمى ينحصر حول فترة من الزمن باللذة يستمتعون معها وإن كانت هابطة رخيصة، كم من زيجة تفككت لأن بناءها شُيِّدَ على فُتاتٍ من الضحالة نبذتِ الحرية لبعض مساوئها لأنها عشيقة الإنطلاق دون رقيب، وأحبتِ التسلط لأن بين ثناياه تكمن مفردات من التسامح لسادته، وبسبب التنافر لهذه الفلسفة حذفت الحب عن قلبها إلاّ للفارس الذي لم يتقدم لها وإن اقتربت من عمر العنوسة وتحبذ الشواذ منهم، وأفضلهم لديها من تقوده نحو حظيرتها ولا تجامل الوسيم لجماله إن لم ينحنِ لطاعتها، ولا تؤخذ بالتملق والإطراء لأنها تتكبر بالفخر والغرور.

عندما كانت بهيجة في مقتبل عمرها، ما كانت مركز إهتمام الشباب، لم تكن كأية فتاة لم تتجاوز العقد الأول إلاّ القليل من

عمرها، لم تتميز بصفة جمال الجسد ولا حلاوة العيون فقط، بل والشيء المميز فيها كانت باذخة الثرثرة دون موجب، تلتقط الاخبار من مصادر عدة ثم تبثها كحزمة تخترعها، دائما تضع نفسها موضع الرصد، وبمرور الزمن وكأن نسيجها إنشطر ونما لجميع أبعاده فتنة وجمالاً، بلغ رصيدها من إهتمامات الشباب ما لم تبلغه فتاة أخرى، أُمنياتهم يلاحقونها في ترحالها في كل ميدان ترتاده، ساعة خروجها من المنزل، الى المدرسة.. الى السوق.. لزيارات خاصة.. وأيّ مكان تذهبه! في سيرتها ومسلكها ينبعث غرور جمالها وتجذب نظرهم وتتباهى أنها الأكثر جمهورا بين زميلاتها، لم تكن ترصد شابا معينا لصفته المحببة لديها بقدر ميزة العدد، إتسمت مصطنعة برزانة وهدوء طبعها المختلق الي جانب ثرثرتها وكأنها مزيد من المتناقضات، وتعتبر هذه الخصال حسب تفسيرها من مميزات البنت المتكاملة أوصافا، أسرتها وتحديدا والدها منح أفراد أسرته مطلق التحرك والتصرف كي يتمتع هو بكامل حريته بملذاته في المقاهي والبارات، لولا الرابطة الأسرية لَمُحِيَتْ صفة العائلة عنهم لأن الكل يتمتع بفرط من حرية التصرف دون رقيب، وكأنهم في سباق لسلخ ذواتهم عن محورها، الأمُّ لم تمارس واجباتها تجاه أسرتها بقدر إهتمامها بالثرثرة على عتبات منازل الجيران، ولم ترعَها بقدر تَصَفُّحِ تاريخ كل من يمر أمامهم بغض النظر عن

العمر والجنس، قريبا كان أم غريبا، نحيفاً كان أم جثيثا، قصيراً كان أم طويلا، بمختصر الكلام، لا ينجو راجِلٌ من تشريحها.. هل هو من رواد المحلة أم غريب طارِيءٌ، هل يتباطأ في سيره أم يعدو حثيثا.

تخمينات وتفسيرات تطوف بين أفراد المحلة لكل عابر بين أزقة الحي، من هو وكم يبلغ طوله وكم يزن! أهي حالة إعتيادية أن يكون زبونا دائميا ليتفقد حيَّهم وفي نفس الميعاد، إستنفرت المحلة لحالة تكاد تُفَسَّر بالشاذة لجولة يؤديها بانتظام رجل مشكوك أمره لأسباب عدة ، الأناقة في ملبسه ويبدلها في نهاية كل أسبوع ببدلة غيرها وإن بدت غير حديثة الخياطة، كانه تقييم لأهل الحي هل سيحظى أنتباههم، حذاؤه ملمعٌ ونظارته السوداء تغطي نصف وجهه كخيول السائس عند قيادة عربته.

هذه الحالة الفريدة لرجل أثارت تفسيراتهم، لماذا في كل مرة يبدل بدلته! قادت شكوك النساء أكثر من الرجال أنه عنصر خطر على المحلة يتوجب الحذر والإحتراز منه، ربما ينتمي الى فصيل من أزلام السلطة يتفقد أمن المحلة إن كانت تأوي مندساً أو هاربا من وجه العدالة كما كانت المفارز المسلحة تطوف المدينة بأزقتها يوم كانت البلدة تحاط يوميا برجال وهي لا تنتمي الي القوات المسلحة النظامية، هل اسم الحي يقلق الحكومة انها خارج سيطرتها ويستوجب مراقبتها باستمرار فدسَّت عناصها

لإرغام سكنتها بالتزام الطاعة لها! نظّارَتُه السوداء يخبيء تحتها ألغازا خطيرة وهي الجزء الوحيد لتشكيلته لا يغيرها، هل بين شباب المحلة من يتجرأ التعرف على هويته لتسجل لأُسرتهم وله الغفران عن زلاته؟

تحرى سكنة الحي من هو الأكفأ لتولي مهمة تقصي حقيقته، قادة المنطقة برئاسة العم نبيل إجتمعت بنخبة من الشباب والشابات لتحديد العنصر الملائم دون إثارة شكوك الرجل، هل يختارون شابا أم شابة لملاحقته ثم مصادقته، بعد المداولة عن صفات المرشح الأفضل لإستلام مهمة نبش أسرار الضيف الثقيل، إنحازت أغلبية الآراء أن تُنتَدَب فتاة دون فتى لتوليها، واستقرت أفضلية الآراء عند حدود بهيجة إبنة جواد، وقبلتها بترحاب وشوق لنبش خبايا أسرار هذا الغريب وكل غريب يطأ ظله زقاقهم.

بهيجة تُعتبر صيادة ماهرة في إقتناص من تشَخِّصه أنها ستستهدفه، فرحبت بهذا الإختيار لأنها تمتلك العنصر الأهم للإستحواذ على عقلية الشباب لما تتمتع بأساليب الخدعة والمراوغة لسعة صدرها الرحب ينفجر بالغرور وعقلها بالدهاء، ولأنها تتمتع بقدرة فطرية لتشكيل صداقات فما تحتاجه لا يتعدى سوى صقل مهذب كي تُسَهِّل مسالك ولوج صداقات جديدة من نوع خاص ضمن هدفها، قادت غريزتَها باتجاه خطَتِها، لم تخطر

ببالها حالة الفشل في مهمتها، وإن فشلت لحين ما، فمرارة فشلها ستبتلعها فورا بجهد إضافي، هل تحتاج حقاً الى دعم معرفي لتزيدها معلومة، وبمن تستعين لهذا الغرض، إنفردت ليوم كامل لتشخص هل الشاب أفضل أم الشابة!

خرجت بعد مخاض تفكيرها أن لا بد من مشورة العم نبيل ليرفدها بما تحتاجه، فانتدب عادل الجثيث معينا لها على أن تصون بُعدَ المسافة بينهما لئلاّ يشكَ صيدُها أنه جزء منها. كم يجب أن تضبط حريتها كيلا تتجاوز حدود حرية صداقة جديدة مع غريب مريب الأطوار، إذن يجب التباحث مع المنتدب لوضع خطةٍ لا تتسرب الشكوك نحوها لا من الغريب ولا من القريب، بما في ذلك سكنة الحي، الخطة منذ تبنيها وأثناء تنفيذها يجب أن تُكتَم في حدود ضيقة لأنها خير وسيلة لإنجاحها. كيف تُطمئن صاحبها أنها صادقة معه وتنحصر في حقل الصداقة على عربدة الشباب، في علاقتها معه عليها أن تبتعد عن حديث خزعبلات الحب الهابطة.

قررت لجنة الحي من المسنين أن يتولى أحدهم مهمة تلقينها دروسا في فن الصداقات البريئة بعد عمليات الشد والجذب كي يتشبث بشباكها، فتم تشخيص العم نبيل وهو رجلٌ واعٍ هاديء الطبع قليل الإنفعال سريع البديهة في أخذ القرار بالوقت المناسب؛ وكيف لا وهو ذو خبرة في كشف المشتبه لما يتمتع

من خصال المحقق المتمكن وقد تولى منصباً بارزاً في قيادة شرطة المدينة، كان قاموسا لشرح الأزمات وأبواب المعالجات، كان حازما في إتخاذ قراراته دون تراجع، كان نزيها نقيَّ الرأي ولا يستند لغير العدل في مهامه، احيانا يتجاوز عرف القانون إن كان سبب بطلان تنفيذ العدل، شعاره في ذلك، أن القانون شريعة سنَّتها عقول بشرية لفترة زمنية ما لا تصلح لكل الأزمنة قطعا.

هل أن هذه البلدة الصغيرة هي وحدها تميزت بالفضيلة وعلى ماذا إستندت كي يرافقها هذا الإسم المبجل في مسيرتها! إستندت الى جملة من المسببات لتحصد ألقابا خُصِّصَت لها حصرا، نظافة شوارعها لم تكن من مهام الدوائر الخاصة، هل حقا أن النظافة تتطلب الكثير من العناء، كل سكنتها نصبت نفسها أن الأمر من مهامها، فبدت وكأن الشارع هو من ينظف نفسه، عطب مصابيح الشوارع يتحملها صاحب الدار الذي يُشرِفُه بضوئه على منزلهم ثمنها وتبديلها، الكل يتسارع في حل ما تتبادر من المعضلات دون البت عن مصدرها، هل حقا أن بسعة المظالم تتسع مساحة المطالب، فما دام هناك الكثير من الأرض الصالحة للإنبات والكثير من الماشية، فلماذا الصراع من أجل حفنة من الحشيش، بطون الأرض لا تنضب من الخيرات لو تناولها البعض باعتدال، بهذه الصفات الجميلة وغيرها من الأعمال الخيرية إشتهرت البلدة، ما مدى مجال التنسيق بين

مجلس أعيانها واللجان الخيرية المتبرعة طوعا لخدمة سكنتها، وبقدر شهرتها كثُرَ عدد حاسديها من أحياء وبلدات محيطها تجاورتها، مدَّ كل من نبيل ويونان يد المساعدة للآخر طالما الخير يصيبهم وشعبهم.

كذا الحال لدى سادة البلدة كل حسب موقعه ومسؤولياته عهد على نفسه وأسرته ألّا يتقاعس عن أداء ما بذمته من واجب صُنِّفَ" بالمقدس"، عيون شعبها ساهرة من غزو الدسائس والمندسبن لمحيطها، ما من زائر يدخل بيتا فيها إلاّ بعلم مجلسها، ومن يتجول في أزقتها يخضع لنظام المراقبة ساعة دخوله ولحين مغادرته آخر مترٍ من جغرافيتها، لا يستندون ليد الدولة لتساعدهم إلا إذا فسروها واختبروا أنها لصالحهم، تحول البعض من سكنتها الى تقويم توثق به أحداث، مؤذية كانت أم مريحة، سبقت شهورا وسنين وتتناقلها الألسن للإستذكار والحذر، لمجلسيها الموقرين ولمرجعية العم نبيل مخولون لغفران من ينطق بحقيقة تجواله في أوقات تدخل ضمن المحاذير. العم نبيل مع أحد المشتبهين بأمره يقال عنه منذر.

نبيل: هذا الزقاق لا يَلِجُه إلاّ لمن خُوِّلَ له.

منذر: لم أسمع ولا أرى بقعة في أرض بلدي محرمة على البعض! هل يحتاج مواطن البلد أن ينال رخصة الزيارة لبلدات بلده!

نبيل: هذا الزقاق موبوء بأجهزة تسيء لجولتك وإن كانت بريئة.

منذر: هل صنعتم كيان دولة تصدون دخول منتسب لها إلأ بإبراز رخصة الدخول، دخلته ولم يصدني أحدٌ.

نبيل: أجهزة التنبيه في مركز المراقبة حذرت لوجود غريب ما يتفقد المنطقة.

منذر: مجرد سائح يستطلع شوقا عن نظافة وهدوء الحي فقط.

نبيل: في هذ الحال أنت طليق من الإستجواب، لكن تجولك للمرة الثانية سيجلب لك ولنا متاعب لكلينا في غِنىً عنها، بإمكانك أن تتصرف دون متاعب.

هل حقاً أن جولات شاب وأيَّ شابٍ غريب يخضع لكشف معدنه، هل يميل الى التكبر والتفاخر إستنادا الى مظهره الخارجي بما يرتدي في كل اسبوع بدلة وإن لم تكن جديدة، هل تجواله في الحي هو لنزهة يؤديها مغرماً في الإنفراد متأملاً بعد أن نبذ الصداقات ويجهل سببها، هل ينتمي الى شبكة تقودها عصابة الإغتيالات في هذا الحي العصي على السلطة وسيطرتها مثلما اغتالت كوادر وظيفية بارزة دون فرز الجنس، كالبامرني رحمها الله مثلاً، هل هو مندوب مكتئب يتحرى عن هدف فقده، من أين ينطلق تحديدا والى أين ينتهي به المطاف

أخيرا، أحاطوه تحت مراقبة دقيقة صارمة.. هل يتعرج الى مكان مشبوه أمنياً.. مع من يتحدث في الطريق أو مع نفسه، هل يتبضع من متجر محدد مثلاً، والى أن يغادر الحي.

إن الذي يلتقِط هذه المعلومات لا تقل مهمته عن مهمة إستخبارات كشبكة واسعة الخبرة ونفوذ مالي وبشري لتقصي الحقائق حوله، بفضل حنكته تحول نبيل الى مرجعٍ للإستشارة لنقاش كل معضلة تنتاب محيط الحي، معلومات قيمة تَشحن قابليات بهيجة لتبث بشرى إبتداء عملها في الوقت المحدد.

حَزَّمَت اللجنة كل هذه المعلومات حوله وجدولَتْها حسب أهمية أولياتها ومن خلالها ستتعرف على شخصيته ربما بعد مدة عندما تتأطر صداقتها بصدق النوايا، لا يزال الشاب ودودا مثابرا في نزهته وإلتزامه بضبط مواعيدها في هذا الحي المثير للجدل، ليس من جانب السلطة فحسب، بل أن سكنته مثار الشك لبقية الأحياء المجاورة.

إن حلق طائر غريب في سماء البلدة، تطوف الشكوك بأن أمرا سيئا سيحل عليها، الحي بأجمعه كتلة متينة الترابط حافظة أسرار سكانها كأسرة موحدة، الذي يتجرأ أن يتصادق مع شاب أو شابة، على المعني أن يعلم العم نبيل بالأمر، تم حصر العلاقات ضمن حدود ضيقة بما في ذلك علاقات القرابة للساكنين في غير حيهم، على كل أسرة تنبيه أقاربها إن كانت

في نِيَّتِهِم زيارتهم تحديد موعدها قبل تنفيذها بما لا يقل عن اسبوع لغرض نيل الموافقة من المرجعية.

كأن نظام جمهورية أفلاطون بمدينتهم الفاضلة إقتبسوه وينفذونه دون جدال، اللجان وفروعها، أعضاؤها، واجباتها، سجلاتها موضع التقدير. مكانة المرأة فيه كمكانة الرجل، بل أرقى وأسمى منزلة، لا تُعاتب ولا تُعاب بمن ترتبط عن صداقة الحبيب أو الصديق النزيه، الشبيبة بجنسيها متآلفة متكاتفة بتفاهم وثقة تامة، وسجلات نافع لم تُشِر الى تجاوز على الحقوق الشخصية فما بالك بالعامة وهي محاطة بالقدسية والإحترام.

(٢)

مع قرب نهاية مدة مجلس أعيان البلدة، وتنفيذا لمبدأ مزاولة الديمقراطية، حُدِّدَ موعد إجراء إنتخاب مجلس جديد يصادف يوم مذبحة"سميل" تقديرا لدماء شهدائها، إستلمت اللجنة المسؤولة أسماءً كثيرة من المرشحين يفوق عدد المطلوب بضعفين، شأنها في ذلك كشأن إنتخابات تجري في مختلف البلدان، بين المرشحين من يتحلى بالنزاهة وآخر يشار له بالبنان أنه "فاسد" أسفرت الإنتخابات عن فوز العدد المطلوب بضمنهم مرشحان إثنان، محامٍ يجيد لي ملف القانون، ومهندس خبير في تحوير جودة الأجهزة حسب المراد، وكلاهما ممن تطال سمعتهم دائرة النزاهة، وكل منهم حرٌ في شكلية الأفكار التي يصوغها لنفسه، ولا يُستبعد أنها ستسوقه يوما ما تجاه التهلكة والمساءلة العنيفة، السلطة تولي المسؤولية بخيرها وشرها وهي صفتان متلازمتان، لا يتقن مفرداتها إلاَ من صاغ نبع دربها " فالديكتاتوريون يحررون أنفسهم، لكنهم يستعبدون الناس" تولى االمحامي شامل مسؤولية الشؤون القانونية والمهندس شوقي مهام السكرتارية، وهما لجنتان يعول عليهما أعباء تطوير المجلس لتأدية واجباته كما هو مطلوب.

بهذه الفلسفة تتناغم آراء البعض لتلف ذاتها داخل شرنقة القانون، في الغالب تُستَخدَم الأفكار الشريرة لجَرِّ مشاعر الخيرين نحو أهدافها. كأن سلطة المدينة فرضت على سلطة البلدة قبول من إختارتهم لعضوية مجلس الأعيان، وفاز الشخصان بالعضوية بقدرة قادر، والمناصب التي حازا عليها كانت باختيار نبيل لأمر خطط له بعناية ودقة لا يدرك مغزاها إلاّ من رافق فكره.

حدث في أول إجتماع ما يشير أن الجماعة مندسة سلطوياً في جسد البلدة لتفريغ شحنات إلتزام سكنتها بطابعها الخصوصي في رعاية الفضيلة، حدث جدال عقيم أثاره المحامي شامل حول مدى صلاحية مراقبة من يزور الحي.

شامل: هل للبلدة قانون خاص تنفرد بشرعية تنفيذه على غير سكنتها، وعلى أيِّ نص قانونيٍّ تستند!

أبدع يونان بصفته رئيس المجلس متفتح الذهن يميل نحوى الوسط، يجامل اليسار بقدر تعاطفه مع اليمين المعتدل في أكثر الأحيان، فنَّد قول شامل.

يونان: أن العدل هو فوق الدستور والنظام الداخلي للمجلس ما دام يصون الحق العام وسكنة البلدة، للدستور مرحلة زمنية لتنفيذه ثم يُجمَد ويَنتفي مفعوله. المجلس لا يمنع غير سكنة الحي من التجوال الحر بين أزقتها إلاّ بعد التحقق من هوية

الزائر وهدفه من الزيارة، مسؤولو أمن البلدة مخيرون بتنفيذ ما يرونه صالحا.

شامل: إذن لماذا نعبيء النظام والدستور مفردات إن لم نتعامل ببنودها، الدستور وسيلة وغاية معا لأجل تنظيم حياة المجتمع!

شيلان بصفتها نائبة الرئيس وعملت في أكثر من منظمة مدنية، إختبرت جيدا العمل الأخلاقي عوضا عن النص الجامد إذا مس كرامة المواطن أو شلَّ من نشاط المنظمة.

شيلان: تذكَّر يا أخ شامل أن دستور مجلسنا يحوي مفاجآت تطال حدود العضوية إن تمادى العضو بخرق العدالة والقانون، نعم لنصوص الدستور حرمة واحترام عندما تراعي بتنفيذها المصلحة العامة حفاظا على سلامة المجتمع.

يونان: سيد شامل.. هل بإمكان أيٍ كان تحوير العدل الأسمى الى معادلة مزجِها مع المصالح الخاصة، ونحن مجتمعون، ألا يحق طرح فكرة بضرورة تعديل فقرة محددة من دستورنا وقد مضى على سَنّهِ قرابة عقد من الزمن، الدساتير ليست منزلة نخشى الجدال حولها، نحن من صغناها ونحن من يطهرها.

شامل: نعم يحق.. أتعني أن نحذف أو نلغي نصا يعارض مفهوما لفكرة مسبقة؟

شيلان: خزين أفكارك يجرد المجلس من الإنطلاق نحو التطور، إن تجاوزتَ حدود التفاهم، فالتصويت يحل كل معضلة تحدث أثناء نقاشاتنا، أم تخال أنك بصدد تغيير نصوصه تجاه مآرب سلطوية انتكَ لأجلها، إسمع يا شامل وأمثالك، مجلسنا حريص على أمن بلدنا وبلدتنا حصرا، كحِرصناً على قدسية دماء شهدائنا.

شوقي: ما المقصود من عبارتكِ ومن هم أمثاله، أنتِ وأمثالك، لويس وانور وسامي، كأن من تبناكم نصبكم رصداً لتنبذوا ما نتبناه من أفكارٍ بعقول وسطية.

سامي هو المسؤول المالي للمجلس وحريص جدا على سبب صرف دينار واحد دون درجهِ في جدول الأعمال.

سامي: اليك أوجه حديثي يا أخ شوقي وليسمع الآخرون، فَسِّر لنا عندما إنفردتَّ بي قائلا؛ وأنقل لكم نصَّ قوله؛ – طالما أنا وأنت نتفق على بعض الصرفيات، لا حاجة لبحثها اثناء الإجتماع– أطلب منك يا شوقي تحليل قولك.

حاول شامل تهدئة الأزمة الخطيرة التي طفت على أجواء مجلس تتصارع الإجتهادات بين أعضائه.

شامل: سنحاول حل إشكالية الحديث بقانون السماح لبعض الزلات، هدف شوقي هو الإسراع في تنفيذ بعض الضروريات دون الرجوع أو الإنتظار لعقد الإجتماع، وهي صفة تستحق الثناء.

رسم بقية أعضاء المجلس علامة الإنزعاج من مداخلة شامل وفكرة شوقي في أول إجتماع، كان من المفروض أن يخصص للتعارف فقط. كترينا بصفتها مديرة الإدارة وزميلها سامي مسؤول الشؤون المالية، إنفردا مع يونان بضرورة الحذر في مناقشة كل ما يطرحه شامل، بل من الأفضل ترك ساحة الجدال مفتوحة أمامه، وكلما إتسعت رقعته تتشتت محاولاته في نيل ما يتمنى، شانه كشان سباح لم يختبر العوم في تيار عارم.

توصف بهيجة بالقمر وهو رمز الجمال والرومانسية في حين أن قمرها يستلم زهو جماله من الشمس، فلولاها لما غنّى المطرب لحبيبته القمر، لماذا لا تتخاصم الشمس مع القمر أو تحسده شأنهم كشأن الأرض مُتخمةً بالمروج في كل البقاع، لكن نرى تخاصم الحيوانات المجترة لحفنة حشيش يابس، ويبدو أنَّ حال بلدنا كحال المروج اليانعة تتقاتل البشرية من الداخل والخارج طمعا للإستحواذ عليه، فخلف كل جريمة عظيمة يتستر مجرم محترف، كلُّ أبطال الغرام يتنافسون كسب ودِّ جميلة الحي بهيجة، فالكسل واللامبالاة لا يثمران سوى الندم وبعد فوات الأوان لا ينفع الندم، فدخل البعض ميدان الإستماتة لحيازتها وكأنها سلعة قابلة للمقايضة والمساومة، هل عندما نوقظ الغافل ونؤدي له عملا دون أن يحاول تأديته وهو قادر عليه أننا نخدمه أم نخدّره وَنَشُلَّ تفكيره! لكن طيش الشباب لا يقبل إلا مبادرته

هو حصرا، من جميل الصبر أن العم نبيل يعاتب عليه في هذا الأمر قبل أن يذوب معدنه في وعاء التحليل والتفسير.

في أسرة نبيل برزت كل شخصياتها في مجال النشاط المدني طوعا تحت رعاية ربها، العم نبيل قَدْرَ ما كان يصرف وقته لأمور البلدة قلما تجده منشغلاً في أموره الخاصة أو أسرته، مكتبه الذي تبرع به صاحب المقهى الشعبي جزءا من محله أضاف الى رزقه مكسبا مهما بتردد زواره له، نال الإحترام والتقدير من سكنة الحي عامة، وكل معلومة تهمهم يجب أن تنال إستحسانه، لايغضب، لا يتشنج، لا يوبخ، تحلّى بالذكاء والنباهة والعدالة في إصدار قراراته وإن تجاوزت حدود أفراد أسرته، إبنه البكر نافع يدير مكتبا وثائقيا يؤرشف يوميات البلدة، تعينه في الغالب إحدى الشابات بالتناوب مع شقيقته ماجدة، مكتبه تحول الى مرجعٍ كتقويمٍ يومي يستذكر أحداثه كلما إحتاج اليها، ضمن مذكراته شخَّص الفتاة الجميلة بهيجة ويحث شقيقته لتتقرب بحذر نحوها، يتزاوران معا ويلتقيان في مناسبات بحضوره أحيانا.

برزت من أسرة نبيل أيضا زوجته غريبة وتقاسمت مع مكتب ابنها حيزا منه كمسؤولة عن تنظيمات تهتم بالأسرة أطفالا ونساءً من النواحي العامة الصحية والتعليمية والتهذيب الخلقي، تجسَّدت النشاطات الثلاثة بقيادة الأب، الموثق نافع والتخطيط ماجدة

بمثابة سكرتيرته والأمُّ راعية الأسرة. وإضطلعت اللجنة بحدة ذكائها ومؤازرة نبذة من المتطوعين، إنحازت كل الأسر تحت قيادتها فباتت وكأنها أسرة واحدة قلما تبدو مشاحنات بينهم، إنشطرت اللجنة الى لجان عدة باختصاصات متنوعة ثقافية، ،ترفيهية، إجتماعية وغيرها، بمختصر الكلام شملت دون إستثناء جميع مرافق الحياة، ولرئاسة كل لجنة أُختير شخص يساعده آخر من غير جنسه، كأننا أمام منظمة خاصة لأهداف إجتماعية تتبنى إشتراكية بدائية!

ما اعظم قول قائلٍ "لا تَتحدَّ إنسانا ليس لديه ما يخسره" تبذير الوقت في ترتيب المظهر دلالة على تعويض النقص حتى تكتمل الصورة حسب الإجتهاد، التجارب الإنسانية بمفاهيمها المتناقضة عندما يعيشها أيُّ فرد بعد مشاهدة مأساة مريرة تستقر كمرحلة مؤقتة لينتقل الى ما هو أفضل.

باجتهاد هذه اللجنة الثلاثية الأهداف؛ وكأنها العائلة الروحية؛ صاغ الحي نمطا جديدا من التكاتف يستوعب سرعة مرور الزمن، فما جاورهم من أحياء تسكنها شرائح غير متجانسة بفعل مقصود من زعمائها، باتت جميعها تُدَبِّر تفتيت إندماجها بشتى السبل سواء بالإغراء أو بالتهديد. ترى منهاج أيهما سينتصر! زقاق" الكتف" بتكاتف واندماج أفراده، أم أحياء "القهر" هذا الإسم الذي لم ولن يرعب غير نفسه، إحتاط الكتف من كل غريب

يزورهم بمراقبة خيرة شبابه وشاباته وبهيجة ترأس لجنة متابعة الغرباء الزائرين للحي.

ومن هي بهيجة لتقود لجنة إستخباراتية لسلخ الشخص من معدنه الأصلي، تربَّت على يد أسرتها ووالدتها حصرا كيف تميز شخصية كل إنسان وتحديدا الشباب على وجه الخصوص قبل أن تُساق نحو عاطفة أو سلوك غريزي، شجاعة بما فيه الكفاية أنها لن تركع أمام المغريات التافهة حسب تفسيرها، وجريئة لأبعد الحدود في شرح ما تخجل زميلاتها من النطق بمفرداتها، الأجساد البشرية تشترك في صفات عامة بغض النظر عن الجنس، كما للفتى أعضاء تستهوي الأنثى، كذلك للفتاة ما تمتلك تحفيز غريزة الفتى، يبقى مبرر خلقها لدى الجنسين لإدامة البشرية لا أكثر، الحس المتبادل بين الشريحتين المختلفتين المتجانستين معا هو سبب التجاذب بينهما، وبعبارة أوضح إنهما كاقطاب المغناطيس المتنافرة تتجاذب لأنها تختلف في تكويناتها.

هكذا كانت تفسر وتعتقد بهيجة، ألاّ نرتبك ولا نخشى من الحديث عن الجنس أمام الجنسين، لأن مدرسة الحياة تحتاج الى بصيرة متقدة لنستوعب معضلاتها وما اكثرها. في جلسة حوارية وكعادة بقية الأيام شملت أصدقاء أكثر عددا من الصديقات تحدثت بهيجة وكأنها محاضِرةٌ لمادة مستعصية تحتاج الى فلسفة لتبسيطها.

بهيجة وهي تؤشر الى صديق بجانبها تعاني الرياح مشقة التغلغل والنفاذ بينهما.

بهيجة: اغلق عينيك وهاتِ يدك يا قيس – وضعتها على فخذها المكشوف نصفه ثم على فخذ شاب– بماذا شعرت بعد أن أبطلت شحنات عينيك!

بين الفخذين من خشونة الملمس والشعر الكثيف.

قيس: قد أستطيع التمييز بينهما عبر نعومة أحدها وكثافة شعر الآخر.

بهيجة: وهكذا نستشعر أننا في خندق أحاسيسنا تقودنا حيثما شاء جبروتها قيادة إرادتنا، نعم المرأة جميلة الهيكل زاهية المنظر بهية الدلال، لكن بعين الذكر فقط، كذا الحال ما للأنثى للذكر أيضا.

عادل: عندما أحببتك لجمال تكوينك ولا زلت كذلك، لا اصطف لجانبك أن الأمر سويٌ لدى المحبين، أو لنقل لدى الجنسين، هل يُفَسَّر قولك أن أحب غيرك مثلما أحبك، قطعا لا، عاطفتي تجاهك تختلف عن غيرك.

بهيجة: أحببتني لجمالي، فإن كنتُ غير موجودة في هذا المحيط هل كنتَ تبحث عني أو عن مثيلاتي وأنت لا تعلم من أكون!

معدن قلَّ مثيله لدى الجنس اللطيف في تثقيف الشباب بما يترتب عليهم أن يتكحلوا عقولهم، وكلما كانت تركز على نزع فرز الجنس عن دور الإغراء، كان رصيدها من الشباب يتزايد تعلقا بها.

في هذا الحي وسكنته تتسم بغرابة الأطوار تعايشت اسرة العم نبيل كمستشارة لحل كل معضلة تجابه أسرة ما أو نزاع لأسباب تافهة بينهما، تكاد تكون بهيجة مصدر المشاكسات بين شبابها أثناء صباها، كل يحاول كسب عطفها، عادل من أسرة ناظم من جهة وقيس من أسرة جبار من جهة ثانية، لا تغيب الشمس دون مشادة كلامية بين الأسرتين وعبء مصالحتهما يتحملها العم نبيل، ووسائل تصالحهم هي القول بحقيقته الحازمة.

إجتمع بالشابين وبحضور كلٍّ من وناهدة شقيقة عادل ومائدة شقيقة قيس وبهيجة تسمع الحوارات لتستجلي سبب النزاع، هل بميلها نحو أحدهم، أم تتَواعد ثم تنبذ الإثنين في آن واحد، ومن خصائصها أنها تحضن تحت أجنحتها أكثر من فرخٍ، ولا تشترط بعلاقاتها أن يسحب أحد معجبيها عن ساحتها لأنها مشاعة لمن يجيد التبارز لأجلها، وتشعر بالفخر والسعادة عند حدوث نزاع أو خصام بين الشباب لنيل عطفها، بل هي من تثير حدة مشاجرتهم.

نبيل: حديثي موجه لكم دون ميلي لأحدكم إن كنتم راغبين بذلك، هل تقبلون وساطتي بينكم وبحظور شقيقاتكم شهودا عليكم!

أبدى الجميع طاعتهم له بأن ما ينسجه سيرتدونه دون رد وجواب. حديثه لا يُفسَّر إلآ بما يخدم الجميع.

: الذي يفرحني إستعدادكم لسماع مشورتي، وقبل أن الجأ لإستجوابكم أملي ألآّ يهين أحدكم الآخر، الصدق والإحترام المتبادل يجب أن يسيطر على جو التصالح ، وخلاله فقط ستستمر الصداقات البريئة، لستُ من يفرض الإختيارات بل أنتم من تختارون نوعية علاقتكم بالتنسيق مع إبنتنا بهيجة، عندما تثقون أن عاطفتها تميل أكثر لأحدكم؛ وهو أمر مألوف؛ على الآخر أن يستجيب للأمر الواقع ويعتبر علاقته معها صداقة بريئة، من هذا المنطلق يا بهيجة تتحملين مسؤولية فرز الحالة، ايهما تتحلى علاقته بصداقة نزيهة، وايهما تحتفظين به كحبيب الغرام، ولا اعتقد أنها من المهمات الجمة في حفظ التوازن بينهما، وأنتِ الأدرى بنوع الحس الذي يستحقه كل واحد منهم.

عادل: نعتبرك شيخ الديرة يا عم، والداي وكل افراد أسرتنا يكنون لأسرتكم كل الحب والطاعة ويتذكرون دوما طيبتكم وحسن اخلاقكم.

: هذا ما يفرحني يا ولدي، ولن أتصرف إلاّ كما يتصرف آباؤكم معكم جميعا، وأنا فخور جدا عندما تحملونني المسؤولية.

: لا أنكر تعلقي بها فوق سقف الصداقة، وأميل نحوها بكل جوارحي وانفعالاتي، في كل وجبة طعامٍ أحسُّ أن شخصاً ينقص مائدتي، وكم من الليالي حلمت وهي بين جدران غرفة النوم تشاركني السرير، وكنت أُحَلِّق كطيور الفردوس وهي تحت مظلّتي تتأوه، عمي نبيل دعني أستجوبها بذلك، حبيبتي بهيجة أَلَم أبُح لكِ بأحلأمي كلما كنت أعيشها وكنت تبتسمين مبتهجة وتصفينها بأحلام السعادة التي تتمنينها! أتذكرين ذات مرة وكنا على صفحة ساقية ديرتنا وسيقاننا كأنها أسماك عندما رميتِ رأسك على كتفي راجية أن أستمر فيما كنت أُحَدِّثكِ به من كلام معسول.! رومانسية أحاديثي كانت محل إستحسانك، كلما كنتُ أتذمر من تجاوز بعض الشباب على حريتك، تتحركين بصرامة بتوبيخ أُثنيكِ عنه، حبي لها يا عم نبيل لا يوصفُ بالكلام ولا بريشة الرسام، هو الوجدان والقلب وكل الهيام.

: وأنت يا قيس ماذا تحمل من عواطف تجاه جميلتنا بهيجة؟ أمتيمٌ أنت الآخر سترسم لوحة هيامك كغريمك المتيم!

قيس: حديثك مسموع يا عم وإن كان خَشِناً وجارحا لنا، نزاعاتنا لا تدخل حقل الكراهية والعداوة المتأزمة، لكني لن أساوم في حبّي لها لا لعادل ولا لغيره، وأعلم أنه يحبها أيضا كحبي

لها، وهو الآخر يتمسك بحبه نحوها ولا يتنازل عنها لصالح غيره! تجاملني مبتسمة ومع عادل تستخدم ذات المبادرة والى أن تستقر عجلة حبها نحو أحدنا، ولا أظن أنها تمتلك موازين الفَرزِ لِفَرزِ فارسها من حظيرة عشاقها، كما مارست الدلال معه مارسته معي وربما أشد دلعاً، ولا أظنها تنكر ذلك، أُذَكِّرها بلقطة جمعتنا معجبيها ولم يتسع الفراغ الموجود بيني وبين صديقةٍ لإشغاله لشخص آخر، لكن بهيجة حبيبتي أزاحت زميلتي بعيدا لتحتل مقعدا بجانبي، كيف تفسر يا عم حركتها لتشغل مكانا وزميلة لصيقة بجانبي! كانت تقرأ خوالجي بين رجفات جفوني ونبضات قلبي، بلمسات يدي كانت كمن صعقها تيار تستسلم لِعبَثِها.

نبيل: وهل هي بضاعة تتنافسون لإقتنائها رغما عنها! الحب يثمر بين إثنين يتحابان، وليس منطقيا أن تحبكم معا بنفس عاطفة الحب، ربما نزوة الشباب تتجاوز حدود المحب، وللحب أنواع ومراحل، هل حبكما لها ينطلق من ذات المحور وهي تعلم به، وما مقدار تجاوبها مع كل حالة، إبنتي بهيجة أَسمِعيني بما احتاج الى توضيح لما قالوا فأنت المحقة لمن تميلين بعاطفتكِ ليكون الآخر صديقا نزيها لا تنبت في حقله بذور الغرام الفاحش.

: عمّي أبو نافع.. لا أكرههم لكني لا أُحبهم الحب الذي يفسرونه، ولن أتجاذب مع نوع الحب بما يصفونه، عذرا عمي..

ولأني جميلة يلاحقني شباب الحي ومن احياء اخرى أيضا، هل كي اصون كرامتي أن أتحاشى تودهم بكلام فضٍ غض، لستُ بضاعة لمن يشتريها أن يدفع الأكثر، ليلتزم كل منهم آداب الصداقة وأنا أُحَبِّذها بدلاً من حب الجنس، في حديثي لا أعنيهما فقط، ولا يستغرب أحدكم عندما أجمع أعدادا كامثالكم في قدر إحساسي في طبخةٍ أتذوق طعمها، فالذي أتلذذ معه ربما لن يكون آخر من أتجاوب معه طالما تحوي ساقية عاطفتي أسماكاً وأنا أتمرس الصيد بمفردي دون منازع، لا تجعلوا من الحُبِّ سجنا تحبسون الحبيبة رغما عنها، علاقتي لا تستقر على وتر واحد، فهي متذبذبة وفق تصوراتي، ليس إستنادا الى مجاملات من يتمرس بها بقدر إيماني انه صادق مع نفسه، أنا كالإستعمار حيثما تكون مصلحتي أُدير نحوها إهتماماتي، كما لا أقيم علاقة ما مع من كان إلاّ بعد أن أُقَلّمَ أظافره كسلوك يناسبه.

: هل أدركتم مغزى كلامها، أم تحتاجون الى تفسير قاسٍ وشاذٍ منها أو من أهلها يؤلمكم، لِتَدُم صداقتكم نظيفة سالمة كأنكم من جنس واحد، إكسبوا محبتكم لبعضكم كحب الأشقاء ولا تفرطوا بصداقتكم النبيلة عندما تقولون الحق، لأن النطق بالحق مضيعة للصداقة وهي أثمن رأسمالٍ يرثه الإنسان.! هل تدينون الصدفة لأنها جمعتكم معا أنتم الشباب لتتأزم صداقتكم، في

الوقت الذي أمنح صديقة الحي حق الإختيار ولمن يميل محورها وإن تقدم لها اكثر من فارس، لكني أعتبك يا بهيجة لسعة ميدان معارفك نحو الغرام، ربما غرورك سيجرفك لِما لا تتمنينه عندما يلتمس طابور المعجبين أنك غير جادة لمن تحبين، فينسحب الواحد بعد الآخر بسبب فقدان الثقة، كما أنت لست بضاعة بيد الزبون، فبنفس المعيار يتفحصك وفي نهاية المسرحية ستخسرين كرامتك ووزن جمالك، لنستمع معا الى آراء شقيقاتكم دون إنحياز، لنبدأ بكِ يا إبنتنا ناهدة.

ناهدة: أخجل.. بل أحتقر ذاتي كأنثى أن تتصرفوا بالحب كما وصفتموه، أشقاؤنا بعلمهم يميلون الى حبها وهي تميل للإثنين، هل ما سمعناه يحلل ويفسر معنى الحب أم التشبث بقشوره، بصريح القول أبانت زميلتنا أنها لن تنجرف نحو تفاهاتكم، بل تختبركم كم أنتم تستحقون زمالتها وليس أمتلاك قلبها، إنها تستند بعاطفتها الى اللامبالاة لأنها لا ترفض صداقتكم، فلا تخسروا أنتم أيضا صداقتها. كلامها واضح وجريء لا يحتاج الى تفسير عقيم.

نبيل: كلام حروفه من ذهب ابنتي ناهدة، وماذا ستصوغ لنا مائدة من مخشلات تفزع العشاق ببريقها.!

مائدة: كلامهم عبثٌ كلعبة الأطفال، حب وعشق وزواج ثم الفراق وكله يستغرق دقائق عدة ، عندما يحرز أحدكم حبها وهي

تعلن أنها غير مُغرمة به وإن تزوجته بعد العنوسة، هل ستنسى أحباءها وتتشبث بكم كما تتصورون! إستخدموا قليلا من مخكم واعجنوه بمقادير عواطفها تجاه جميعكم، بماذا تستنتجون، ليس لأنها غير صادقة بحبها لحبيب معين، بل لأنها تبحث عَمَّنْ يركع مُذَلاً أمام سطوتها. نصيحتي، إلتزموا بمبدأ الصداقة عوضا عن الغزل والغرام كي تحافظوا على وزنكم أمامها. أتوقع أنها ستتبادر لاحقا بإعلان مرح حبها لمن يميل، فالتزموا صبركم كي تكسبوا!

نبيل: لا أملك كلاما أكثر جمالا مما سمعتموه، لا تمِلّوا من الصداقة ولا تستغلوها لمآرب بخسة، تصرفوا بعلاقتكم معها كما تتصرفون مع زملائكم بالإحترام المتبادل. لا تعني الصداقة كم من الوقت تستمتعون معا لهوا وعبثا، بل كم تستفيدون وتفيدون من اجوائها، وهل ستتغير في سلوككم نحو الأحسن؟ تجربتي في الحياة علمتني متى يجب أن أُشعل ضوءاً اكثر كي أعثر على صديق نتفاعل معا نحو إرتياح الضمير. ولا أصادق قطعا مع من يتذمر من صرامة قول الحق. كونوا يا أبناء المحلة قدوةً نفتخر بكم نحن الآباء والأمهات أن جيلا سيستلم مهماتنا باقتدار ومسؤولية فذَّة.

(٣)

عودة الى جولات الشاب الجوّال داخل الحي، ما يزال يمارسها إن كانت لمهمات مهنته أو دون هدف كتائهٍ تسوقه قدماه حيثما شاءتا. المكاتب الثلاثة للمدينة الفاضلة التي شكلها العم نبيل، إجتمعت بكامل اعضائها لتدارس أمر هذا الغريب. مضى أكثر من إسبوعٍ والرجل يوميا يتجول في نفس الوقت في الحي قادما من نفس الجهة وقاصدا الجهة الأخرى وعلى الدوام، مهمة إستطلاع أمره قد يشوبها عجز في الإدراك دون تكاتف جميع المعنيين، وقد يتحول الى مركز للإزعاج والإرتباك، لا يُستبعد من معاناة نفسية قد أصابته أو تمت إصابته سابقا ويعاني مخلفاتها الآن، هل يشكل أسرة أم يتسكع كأعزب في الإزقة بحثا عن فريسة تغريه، ربما تاريخ حياته يتضمن مآسيَ لا يستوعبها، كم ستستغرق بحوث اللجان لتعثر على خيط تستدل خلاله شخصيته. إستغلت بهيجة فرصة خلو الشارع من المارة باستثنائه والجثيث عادل خلفها يتابعها، في عملية مقصودة تعمد عادل التحرش بها لتقيس مدى تجاوب الرجل للحالة، تقربت نحوه وهي تتعمد الإتصال مع شخص تشكوه من شخص يتحرش بها لتثيره بتواجدها بقربه في شارع لا لغير الطيور تواجد.

: نعم حبيبي أسمعك جيدا.. لكن..لالا صوتك واضح جدا.. أنا قلقة، شخص يحاول إرغامي لأستجيب طلبه لمصادقته، لا تقلق أنا في مأمنٍ سوى شخص مظهره يدل على حسن أدبه يسير أمامي يسبقني بخطوات.. لالا، الجثيث تخلى عني بعد إتصالي بك. يا حبيبي لا تقلق، الذي معي في الشارع وإن كنت لا أعرفه.. إنه كما قلت ألتمس طيب أخلاقه، هذا ما أظنه.. ربما ألتقيك بعد ساعة أو أقل، بالمناسبة لقد نسيت دعني يا حبيبي أسأل الشخص عن المحل الذي تسأل عنه.

تصرف الشخص وكأنه ما سمع شيئا مما قالته.

: لُطفا صديقي العزيز أسألك عن الساعة رجاءً فأنا على موعد مهم مع زميل تواعدنا في محل التحفيات.

تجاهل طلبها وربما لم يسمع مناشدتها. كررت الكلام بصيغة أخرى.

: عذرا رفيق الدرب وقد أوصتنا بها الأديان أن نتحاور معا ما زلنا على نفس السكة نسير.

: لَخِّصِي كلامك بموجز الأخبار، تفضلي ماذا تريدين. أنا في صراع مع رأسي، اتركيني قبل أن أترك ظلّي.!

: ساعتك كم تقرا رجاءً!

: ساعتي.. ساعتي أُمِّية.!

: أقصد كَم هي الساعة الآن!

: الآن أم بعد الظهر؟

: حقا إنك لطيف جدا.

ألآ تكفيه ورطته بما هو فيه لتستفز مشاعره عندما كانت حبيبته تجامله باللطافة أجابها بعنف.

: بأيّ شيءٍ تميزين لطافتي ؟ أنا في ورطة الصداع ولا أدري لماذا أصارع ظلّي.

: اسلوبك ساخرٌ يا صديقي، حاليا كم هي ساعتك رجاءً.

تمارس معه ديبلوماسية الحوار المتمدن بالرجاء والمرونة تنفيذا لما لقَّنها سيدها العم.

: كلمة رجاءً التي نطقتها يختلف وقعها عنا، هكذا كانت تقول لي الدكتورة، أين هي الآن!

: وهذا جائز، فالبعض كلمة رجاءً يستخفها ويهجن أوقات إستخدامها، هل وزنها عندك كوزنها عند الدكتورة التي تقصدها مثلا.!

مالَ الحوار بينهما نحو الإستمرارية بين الأخذ والرد وعليها إستغلاله لما كُلِّفت به.

: بالتأكيد. كل حسب وزنه، وزن الرجاء..رجاءً الصداع يقلقني ويفقدني التوازن في التفكير، لا بل يؤلمني جدا.

بهيجة: كلامك وإن كان أجمل ما سمعته في حياتي، لكنه مبهم، ربما أني غبية لا أستوعب لغتك!

كأنها تتلمذت على يد طبيبة نفسانية شحنتها بعبارات لا يستخدمها سوى العاملين في التخصصات العقلية.

: هل أنت طبيبة نفسانية! حديثي قطعاً لا يستحق التجميل، أنا من يستحق التجميل، صديقتي ستعالجني حتما عندما أعثر عليها.

: أشكر إطراءك تجاهي كدليل على رقيٍّ أخلاقك يا زميلي، تتميز باسلوب مهذب يا زميلي.

الزائر: ليتني كنت كذلك، في زمن ما كنت كذلك.

بهيجة: أتوافقني التجول في هذا الشارع المليء بالطيور لتحرسنا من ظلم البشر!

طموح زائد وسريع الطلب، ألا تخشين يا بهيجة عنف رده وهو دائماً يتشكى من رأسه المعبأ بِالهَمّ والصداع !

: بالحقيقة لستُ فريسة، بل أبحث عن فريستي، الصداع يفقدني أين رحلت فريستي.

: لستَ فريسةً وما انا بصيادة، وأبغض من جذورها أية علاقة تُبنى أساسا على المغانم. فإن مالت صداقتك نحو النزاهة وصفاء النية فمرحبا بك، وبخلافه أستودعك، لكني لستُ نادمة على الدقائق القليلة التي أشغلنا مخنا في نثرها هباءً، أطمح لصداقة نزيهة فقط.

الزائر: أنا بحاجة الى مسعفٍ.. الى طبيبة رجاءً.

بهيجة: اَها !! إذن أليس كذلك يا صديقي أننا نحتاج لبعضنا! أتعدني غدا في مثل هذا الوقت على مروج متنزهنا أن نتنزه بعيدا عن الهموم، فأنا مكتئبة مثلك بسبب سلوك بعض الناس الذين يتجاهلون عذاب المرأة، بودي أن أجد عندك القليل من الصبر لتخفف معاناتي، مذاق حديثك يغريني لتشكيل صداقة بيننا وأنا محتاجة الى هكذا نوعٍ من الصداقة النزيهة، ورفضك طلبي كأني محكومة أن أرافق سخافات البعض.

إستخدمت السلاح الذكي للمرأة فإصطنعت البكاء.

: أنتِ ثرثارة دون ملل، الدكتورة كانت توبخني كلما كنتُ أُطيل الكلام، وكانت تكرر كلامها لي باستمرار، أفهمت يا، عذرا نسيتُ إسمي، أنتهى الحديث بيننا، دوام المستشفى إنتهى والطبيبة غادرت، ولن أعدكِ أن غدا سيتم لقاؤنا لسبب إنشغالي في أمور خطيرة تهم أمن المواطن وأمني بالذات.

: إذن لندع أن تلعب الفرص مهامها لنعيد اللقاء إن شئت، وأنا فخورة بما نسجت بيننا خيوط معنى الصداقة شريطة نزاهتها؟ لا أظن أنك من نفس معدن البعض.

: خُدِعتُ مرة من سيدة أحبتني ولم أكن واثقا من حبي لها، هل أنها تسكن حيّكم رجاءً! الصداع يشلُّ تفكيري.

بهيجة: ما اسم حبيبتك، إن عرفتها سأرشدك نحوها.

أول خيط نسجته لتتقرب اليه دون أن يحجب عنها بعض ذكرياته القريبة أوانها.

: أحيانا ذاكرتي تخونني، نسيت إسمها، لن أنخدع ثانية معك، إنصرفي قبل أن تشك الأجهزة الأمنية أني ألجأ للنساء لكسب موقعي بين الجماهير.

: لا يا صديقي، بعض النساء؛ واتأسف أني إحداهن؛ هن من يلجأن الى تشكيل صداقات، إياك من بعضهنَّ.

: أمُرُّ في مأزق وجسدي يتألم أحتاج الى من يرشدني ماذا أفعل! أنتِ من تكونين!

: عذرا صديقي، لا تبخل بطرح معاناتك لي أو لغيري، أطلتُ حديثي معك، معذرة لدي مشاغل عديدة على أن أنصرف، لا أقول وداعا بل الى اللقاء ثانية.

تركته أو بالأحرى أزاحها عن طريقه كأنها تطارده كما تطارد أزلام الشرطة لصا هاربا أو مناضلا خطيراً، تعقبته دون علمه وتراقب خطواته، توجه نحو ربيةٍ قرب حديقة أمام مبنى المتحف وجلس على مصطبة خشبية تكاد تكون مستهلكة، دخلتْ مبنى المتحف ومن خلال شباك الصالة بدات عملية المراقبة، أخرج دفترا صغيرا بقدر راحة كفه وأخذ يقلب بضع صفحاته سحب من داخل غلافه قلما قصيرا وانشغل بالكتابة قرابة الدقيقتين، نزع من دفتره ورقتين وقذفهما.

أخرج غليونه ينظر بدهشة الى دخانه يشكل لوحة لولبية كأنه يحاكيها، حركاته سرعة الإنتقال، تارة يسند رجله على زميلتها ثم لا يلبث أن يبدل الوضعية كأنه يوزع آلامها، غليونه في غاية العذاب إنتقالا بين شفتيه ويديه دون أن ينفث دخانه باستمرار، وهل يلجأ الى حبس دخانه نوعا من عذاب المحصور في زنزانته! وبماذا نفسر إنفراديات‌ه، هل خشية تفسير مقصود يُنسب اليه، وكيف نفسر نظارته القاتمة، هل هي إستدلال على الهموم يفرزها الظلام ! هل فُرِضَ عليه أمر ساخط ليبدو مرتابا يحك رأسه بين فينة وأُخرى.

إعتادت بهيجة أن تزور المتحف في ذات الميعاد وتقابل المقعد الخشبي من نفس الشباك يوميا، ويتواجد الشخص بنفس الموعد على نفس المقعد، مع أنه عمل ممل بالنسبة لها، لكنه سيثمر لاحقا بابتسامات العم نبيل، جلست على مقعد يبعد عن مقعده أمتارا عدة وأدارت ظهرها نحوه متعمدة ثم تظاهرت بالإتصال مع حبيبها.

: لا تبخل علي جمالك، نعم في ساحة المتحف، أنا وحدي مع بعض الطيور، صدقني إن المكان خالٍ من البشر، وهو كذلك أنتظرك نصف ساعة أخرى، أسرع خطاك رجاءً، أنا أحترق شوقا للقائك، أسرع رجاءً.

لازمته قحة قوية مستمرة أو تعمد بخلقها، أسرعت بهيجة لنجدته تمسح ظهره وتدعك كتفيه.

: سلامتك صديقي، عذرا خِلتُ أنك غريب، الجو لطيف أستبعد إصابتك بعطر زهورها، أعتذر ثانية، خلتُكَ من الغرباء يا صديقي، وانا بطبعي لا اصاحب أحدا من أول بادرة إن لم أتأكد مِمَّن أتصادق! أعتذر يا صاحبي. أرجوك سامحني، فتاة مثلي تتوسل اليك السماح.

وهل الزهور تطلق الأحاسيس إن كان البعض يعشق طيب رائحتها أو تنذره الإبتعاد عنها!

: صحيح أنا أتفاعل سلباً مع عطر الزهور، أوصيتُ حبيبتي أن تبتعد عن إستخدامها إن كانت تحبني وهو سرٌّ إبعادنا عن بعضنا، لماذا الزهور تتحول الى أشواك بعد أن تشيخ، هل أنتِ زهرة!

طاف في الخيال وهو يحدث نفسه، لأن بعض الزهور لاحقا تتحول الى أشواك كالمسمار تؤذي، صديقتي..

: أتألم جدا عندما أتذكر خيطا وحيدا من حياتي، صداع يرافقني ويبعد عني سجل الذكريات، على أي حال لستُ متذمرا لأنك تجاهلتني، الناس في المستشفيات ينفرون بعضهم بعضا، لا أدري لمَ، إلتِهاؤكِ بقدوم حبيبك أنساك تواجدي وأنت محقة أن تستقبليه، ليتني أقابل من تحبني بدلا عن غريب مثلي لا نفع لك

فيه إن خلا من ضرر. بهيجة وكأنها فسَّرت ما كان يحَدِّث صامتا.

بهيجة: لا يا صديقي العزيز، لي متسع من الوقت إقضيه معه، لكن لا أهمل الصداقات وإن كانوا غرباء؛ وقتي هو ملكي أتصرف معه بمزاجي بحيث لا أُسيء إستخدامه.

: سيدتي. من تكونين، وما سر إهتمامك بي، أنا لا أتذكر من اكون، ومن أين اتيتُ، من أنتِ!

بهيجة: بخصوص ماذا، لا أُجيد الثرثرة وإجاباتي محددة حسب السؤال وليكن سؤالك واضحا.

: إسمك مثلا، هل هو طويل أنسى آخره قبل أن أنطق أوله.!

: أنا بهيجة بالمعنى وليس بالمظهر.

: في أي مستشفى تداومين، أعني هل أنك طبيبة أيضا!

بهيجة: ليكن.. وبماذا يهمك أمر عملي ما هو واين هو مقر وظيفتي، هل تنوي زيارتي في المقر؟

وبماذا يتلذذ بالبهجة وهو مخنوق باليأس والضياع، لو جازت له تسميتها لصاغ لها إسم " صاعقة "

الزائر: قلتِ أنك بهيجة، وبماذا تبهجني حروفها!

بهيجة: من يسمعها ينشرح، وأنت بماذا أسميك؟

: أنا عبد وأعبد خالقي فقط.

: إذن أنت عبدالله وأنا بهيجة، عاشت الأسامي. أسمك سامي المعنى وأبتهج لنغمة إسمي.

مثيلاتها.

: سامحيني إن تجاوزت قباحتي حدود العائلة.

بهيجة: أنر أكثر رجاءً.

: ما أعنيه؛ عن العلاقات الأسرية؛ هل أنت متزوجة مثلاً.!

ماذا تعني كلمة "متزوجة مثلاً" هل ليتأكد لحالة تفيده لأن السيدات أكثر ترددا للمستشفى من الآنسات!

: ليس من السهولة أن أرتبط بمن يتقدم خطوتين نحوي وأنا أتراجع ثلاث خطوات.

أثار جوابها إدراكه وأدار وجهه نحوها ليتفحص تفاصيله جيدا فقال.

عبدالله: أستغرب.. ملخص الكلام أنك لن تتزوجي، ويل لمن يرتبط بك! فلسفة جديدة في مقاييس الحب عندك أكرهها. أنتِ أجمل من موناليزا، هل جالسك رسامها ليطبع عليها تفاصيلك! أتريدين مضاعفة صداعي بأقوال لا أستوعبها الآن.

: أبدا.. تفاهات كهذه أنبذها واكرهها. حقاً أنك تمتلك خزينا جيدا من الثقافة، أتعرفه؟ الذي رسمها.

: في كل الأحوال لستُ أنا من رسمها. نعم، وهو كذلك، ولكن حبنا لم يكن من التفاهات، إذن لماذا إنفصلنا، هل يفرض

على المحبين أن يشقوا بحبهم، حبيبتي دوما كانت توبخني لأنني كنت أجهل معنى مسايرة الحبيب، هذا الصداع كلما أتفقد معبرا للمواصلة في ذكرياتي تنقطع السلسلة عند منعطف أعتز به، صديقتي تمهلي معي في حديثك لأستوعب من أكون!

العم نبيل لا يشك أبداً بقدرتها ان تحصل على ما فقده الفارس الجوال من ذكريات وآلآم، بعد كل جولة بينهما ترسل له مقدار الكم الذي أنجزته من التقارب، والعم نبيل يحثها الحذر ثم الحذر.

غابت بهيجة تلك الفترة التي دامت أسبوعا كاملا عن المشهد اليومي مع الزملاء والزميلات، وتحاشت الإتصال بأفراد المجموعة خشية تَسرُبِ خبر مهمتها، على أثرها إستدعى العم نبيل أزلامه بحثا عنها ونشطت أسرع من زمرة أفراد النجدة لتعقب أثرها كدليل على جهله لماذا إختفت؛ وهو يعلم علم اليقين أين هي ومع من تجتمع.

كل مجموعة إنتدبت عضوا فتشكلت فصيلا يتمرس التنقيب بالحدس والتدليل، وعمله هذا تم بالتنسيق معها للتستر على نشاطها ولا تحتاج الى تغطية إعلامية لتفوز بكلمة شكرٍ، حقا إنها تستحق الإنخراط في إستخبارات جيش قويٍّ كجيشنا أيام زمان عندما كان يتابع أثر خلية تفككت ولم يبقَ منها دليلٌ سوى طفل لقيط.

هلعُ اللجنة تلاشي عندما شاهدها نافع في حديقة المتحف وصاحبهم معها يتجاذبان الحديث الساخن وكأنهم أحباب زمن ما يستذكرون حلاوة حبهما، إتصل بها وكانت المكالمة بمثابة دليل لصديقها أنها مرتبطة بالصداقة كصداقتها معه وأطلقت حدة صوت هاتفها ليسمعها.

: إشتقت لهذه المكالمة يا صديقي، أنا بخير ومع صديق آخر رزين مثلك ومؤدب مثلي.

: بودي أن أتعرف عليه، هل تقبلين الوساطة بيننا إذا رغب، بلغيه تحياتي رجاءً.

هل حقا أنه إنسان مهذب ومؤدب، وما هي علاماتها لتقرأها من على محياه. أشار اليها بعدم رغبته في صداقته حاليا، ربما بعد حين سيرضى به صديقاً.

: الصداقة ليست لعبة أطفال يا صديقي، لا تعرفه ولا يعرفك، ماذا سيكون مصير صداقة مبنية على المجهول، لن أكلفه ولا أحثه لأمر لا أُحبذه لنفسي.

كأنه في ميدان شاسع وواسع كميدان كرة القدم تتقلب ألماً بين أقدامهم وهم فخورون بعذاباتها.

عبدالله: ليكن كما تتمنين، وربثما تكتمل صورتي لدى غيره، أرحب بصداقته لاحقا، لا أطمئن للصداقة لأن حبيبتي تخلت عني، عندما تتزوجين لا تسمحي لزوجك يتحرش بك، القانون

يحرم المزاح أثناء التحرش، أو الأحرى بالعكس، حبيبتي لم تسمح لي أن أُقَبِّلها عندما إبتسمت لنكتة تحدثت بها حول قطتي وهى تتزاوج أمامنا دون خجلٍ.

إخجل يا يوسف، كلامك ذو معنى إفتزازي، حتما سترفض تحرشك خشية تجاوزه الى مطالب أخرى تخدش الحياء.

سجل نافع في مذكراته مثمنا دور الناشطة ونقل لوالديه أن الزائر في شباكها ستحصره وتعصر عقله قبل أن ترميه كقشور تالفة دون فائدة. قبَّل نبيل رأس ولده وحذره من إلحاحه طلب صداقته إلاّ إذا تمت بطلب منه، أوصاه بضرورة إستعمال المصطلحات المشفرة في حديثه معها ولا يكلفها بالكف عن اللقاء بصاحبها إلاّ إذا إكتملت صورته عند اللجنة.

(٤)

في إحدى زياراته للمستشفى ليتفقد كيفية سير العمل دون تذمر أو ملل وهو من صلب مهام مجلس الأعيان، صادف المهندس شوقي تجمعا يتكاثر فيه اللغط والعياط ويجهل سببه، إقترب بحذر ليستطلع آخر الأخبار من أقرب الأفراد المأججين له سائلاً إياه.

شوقي: ما بال الناس في شجارٍ، هل ثمَّة أزمة إقتصادية أخرى ستحل بيننا، أم أن وباءً آخر تفشى أيضاً، مهما كان الطابور طويلا، فالإلتزام بتسلسل الدخول يحلُّ إشكاليتها، الأمر لا يستوجب وجود شرطيٍّ لنلتزم إحترام الحقوق، أرجوكم الهدوء ثم الهدوء.

إستغل إنتباه الجمهور لندائه فوقف في مقدمة الطابور ليسبق غيره الدخول للفحص الطبي، ازاحه أحدهم بسحبه خارج الطابور وأوقفه في ذيل المنتظرين.

الشخص: هذا هو موضعك حاليا، لا تستغل عضوية المجلس لصالحك، أتيناك لتخدمنا وليس أن تحصر خدماتك لنفسك، تعلم كيف تقدم خدماتك لناخبيك.

صفق الجميع على شجاعة الشخص، نافع حاضر ضمن المنتظرين وثق في سجله مخالفة النائب، ربما تنفعه لاحقاً.

شوقي: لستُ مريضا، جئتُ لأمر خاصٍ يهمكم، رجاءً زيارتي للطبيب لمهمة خاصة تعالج معضلاتكم من تلاعب بعض الصيدليات بتسعيرة الدواء، تتفاوت كلفة وصفة الطبيب بمبالغ مشكوك بها من صيدلية الى أخرى، لا تسيؤوا جهودي وهي لمنفعتكم أرجوكم.

أدخله البواب في الحال طالما دخوله ينفع الجميع، وصوت حديثهم مسموع للزائرين.

الطبيب: سيد شوقي، ذكرتك أن المراجعة القادمة لا تتم إلاّ بعد مرور شهرٍ واحد على الأقل من المراجعة السابقة، لا أستطيع كشف مقدار تحَسُّنِ صحتك الآن، حالتك لا تشبه نزع شوكٍ مغروس في جلدك، مراجعات المريض للطبيب لا تدرجها كمن يراجع أية دائرة أخرى لتسبق الحاضرين.

شوقي: جئتك لغاية أخرى صديقي، إن أمهلتني الحديث سأوفر جهد إنفعالك.

الطبيب: وفر جهودك يا شوقي، شفاء المريض أمنية أسمى للطبيب المعالج، لا أتمكن البتة من الكشف عليك ثانية إلاّ بعد اسبوعين، ثبّت الموعد عندك لئلاّ تنسى.

شوقي: أرجوك دكتور، إمنحني فرصة الحديث لتفهم سبب مجيئي قبل الموعد.

الطبيب: باختصار رجاءً حدثني بما اتيتني لأجله.

شوقي: أتيتك لأمر يفيدنا نحن، أنت وأنا.

الطبيب: إن تعذرت زيارتك لي في غير هذا الموعد، إختصر ما لديك من قول واضح ومفهوم.

شوقي: الجهاز المطلوب لشعبتكم متوفر لدى مخازننا وبأسعار مناسبة، لستَ مرغما بالإعلان عن المناقصة، إن شئتَ نتفق على السعر الآن.

الطبيب: كم سيكون فرق السعر بين الإثنين!

شوقي: بعد الإتفاق سوف لا يقل عن ضعف السعر الأصلي.

الطبيب: وكم ستكون حصة كل فرد؟

شوقي: بالمناصفة تقريبا.

الطبيب: أطلب الثلثين ولك الثلث، إن وافقت فانا متفق معك منذ الآن، أسرع جهودك.

شوقي: أتيتك لأنك المخول عن إعلان المناقصة، الربح بالمناصفة إن وافقت عليه، سيجر إتفاقات جديدة لمشاريع أكثر رواجا.

الطبيب موبخا بشديد اللهجة.

: إنصرف يا فاسد قبل أن أبلغ عنك العم نبيل، كيف تجرأت الحديث معي باسلوبك العفن.

شوقي: تريث واهدأ قليلا، سألبي طلبك بالمقدار الذي تستحق من الحصص.

الطبيب: آسف يا شوقي، كتاب المناقصة جُهِّزَ وهو قيد الطبع بعد أن دون السيد المدير ملاحظته على هامشه. لقاؤنا هذا سيجلب لك متاعب ومسؤوليات تطال مركزك إن تجاوزت حدودك أكثر، لا ترغمني قسرا أن اتصل بالعم نبيل!

حال خروج شوقي من الغرفة شد الشجاع ذراعه وأحاطه ورفاقه من المنتظرين موبخين إياه بكلام خشن وبذيء جدا، ولم يطأطئ رأسه خجلاً، كأنه تعوَّدَ على هذه النصيحة المؤلمة!

الشخص: إخجل يا شوقي، متى تتستر أنت وأمثالك على أساليبكم العفنة في تطاولكم على حقوق الشعب!

أفضلية مدينتنا لا تكتمل إلاّ بتكامل إجراءاتنا في صيانتها، إعتَبَرنا من حالة سابقة في متابعة إمرأة كزائرِنا الحالي، تتجول بصفة معتوهة لتنال رأفتنا، وكان لها ما إحتاجت بدعم من شاباتنا يتسابقن في عونها الى جانب الشباب المتعطش في مساندة حالة إنسانية كهذه المعتوهة؛ إن كانت حقا كذلك؛ لم نستقريء مسار ماضيها وما سبب علتها، مبدأ الإنسانية أنتصر علينا ودفعنا ثمنه لصالحها، ثلةٌ من المتعقبين لها إستجوبوا قرابة الساعة كل من –صوفية– والدة بهيجة و–غريبة– والدة نافع عن سبب دعمهن لها، هل لأنها بحاجة الى عطف واستنجدت

بهن، هل قرأنَ ماضيها وما هي حكايتها! ربما هي هاربة من قباحة إرتكبتها بحق أفراد أسرتها، حالة الهروب مع العشيق رائجة وخاصة بين المتزوجات المرغمات. كانت صوفية؛ ويبدو أن بهيجة ورثت عن أمها هواية متابعة الزوار الغرباء لمدينتهم؛ تطوعت هي الأخرى لهذه المهمة وغريبة ساعدها الأيمن، تشكلت شبه صداقة بين الثلاثة والمعتوهة هي من تبادر البحث عنهن وعمرها لم يكن يتجاوز الثلاثين إلآ قليلا.

صوفية: ما اسمك يا صديقة؟

المعتوهة: لا أعرف، لكني أعرف أنهم لقَّبوني معتوهة وأنا أكره هذا الاسم.

غريبة: سنسميك منذ اليوم ب –أمية– هل تقبلين؟ ماذا.. أمية! كنت حينها أذكى طالبة في الصف، وفي إمتحان كل مادة إن لم تكن درجتي الأعلى كنت أبكي، وتلقبونني بالأمية.! أتفهمون ماذا أقول؟

إنتبه الوفد المفاوض الى القول الخطير وكأنه صاعقة عندما كشفت عن ذكائها وتفوقها في المدرسة.

صوفية: إذن أنهيتِ دراستك بجدارة يا.. قولي بماذا نسميكِ؟

: أحبذ أن يدعوني الناس ب –إنتقام– لأثأر لحقوقي، هل أنتم من هضمتم كل حقوقي!

لا أرقى عقيدة على وجه البسيطة ولا أنبل وأسمى من إبراز حقيقة كعقيدة دامغة، المتربصون في طمرها أحيانا يميلون نحوها لو تمادى البعض في الإستعانة بالعنف القسري لإخفائها، هل في سجل حياتها آثار أليمة جدا تريد أن تنتقم ممن سبب تشردها تائهة بين الأزقة، تتذكر أحيانا كرجفة جفن، مركزها ثم تتلاشى الصورة عن خيالها ولا أثر لأشباحها.

غريبة: يا إنتقام، متى هُضِمَت حقوقكِ ولماذا.

: حكايتي مع الزمن كحكاية رعد... عُذراً إنها من أسراري. إفهموا ماذا أقصد.

صوفية: بداية الرعد مرعبة ونهايته تبشر بوفرة الخير للفلاحين.

إنتقام: أنا أكره الظلم والخيانة، أكره القادةَ السياسيين أمثال رعد وغيره، من هو هتلر! غاندي تمرد على لعبة الشطرنج لأنه لا يحبذ قتل جنوده فداءً لبقاء الملك، آسفة لقد نسيت أسماء سياسيي بلدي لأن قائمتهم تطول، هل كان مستر بوش معهم وقد ازاح عن كاهلنا ظلم أمثال رعد وعهدهم، درستُ مذكرات الدكتور المالح طيب الله ثراه، تعلمتُ أن دفة الإخلاص، لا أعرف بماذا أُكَمِّل، ذاكرتي تخونني!

صوفية: أسرارك من إهتماماتنا ولن ننشرها.

السر الوحيد الذي لا تستطيع فك طلاسمه الآن، من كانت ومن هي الآن، الذكرى الوحيدة التي تزور خيالها بين حين وآخر كانت تلك اللحظة التي تأمر الشخص المقرب اليها لينصرف عنها ثم تسخر مما فعلته وما تتذكره لا يتعدى نبضة واحدة من القلب.

إنتقام: أُتابع الليل بنهاره والمتهم هي الشمس. لماذا لم يخلق ربنا فاصلاً بينهما لنميز نهاره من ليله، أنا أدرك لكن غيري لا يفهم. صراع الليل مع النهار كصراع بين أنكيدو وكلكامش كل يلف خصر الآخر ليفتك به، وفي الأخير يتفقان في محاربة خومبابا وقد نصبته إنليل لحراسة غابة الإرز. هل غابة الأرز هي في قصوركم!

عضت المرأتان شفاههن واكتسبن معلومة حيَّرتهُم أن المعتوهة التي امامهم ما هي إلاّ نابغة في أكثر من مجال المعرفة.

صوفية: نحسدك على قوة المعنى باتهامكِ الشمس بالمذنبة.

إنتقام: عليَّ أن أغادر ولا أعرف أين يجب أن أذهب، كل أملي ألا ألتقي برعد، فهو مصدر قهر المخلصين، سأعود بعد اسبوع أو غدا، سائحة أتجول دون هدف، لنبدأ من النقطة التي توقفنا عندها، أكره مخالفة الموعد أو تأجيله، عندما يأتيني حبيبي نؤجل الجلسة لإستدعاء المتهم مثلما يلجأ المحامون الى

التاجيلات كي تنضج قضيتهم، وقضيتي ستؤجل لمرات ومرات لأني أنا المتهمة. إفهموا ماذا أقصد.

يبدو أن مستواها من الإدراك ليس كما يبدو على محياها من بلاهة وإهمال، مما شوّقَ الصديقات أن يغزَونَ إدراكها الغامض، ولأجل ذلك هل من الأفضل إشعار وجهاء البلدة لغرض التأييد والدعم، تطوع كل من عادل وقيس، فتشكل فريق ضم مندوبا من كل أسرة، إنتقام إستاءت من إنضمام الشابين الى صداقتها فتحولا الى خلف الكواليس لحين الحاجة وانحصرت مهمتهم جمع المعلومات عنها.

(٥)

الجغرافية القاسية للمنطقة ميزت طبيعة العيش والتعامل بين سكنتها، أهل السهل منبسطون، وأهل الجبل معَنِّفون بفعل الطبيعة، هكذا أفرزتهم خيارات موبوءة بآراءَ مريبة، بعض القرى تختلف عن جيرانها في معتقداتها الدينية والمذهبية والإنتماء العرقي، لكنها دون إستثناء كانت تعيش مع بعضها كأسرة متحابة، بلدات كبيرة تتناثر حولها بيوت القرى المجاورة، بحيث أن نباح كلابها مسموع لدى سكنة المدينة ليلا، لا جزية ولا ضريبة يدفعها إنسان للدولة بسبب إختلاف في الدين، حرية التنقل والسكن مباحة دون قيود، وأن حرية التعلم للجنسين كانت متاحة أيضاً.

إبان إشتداد حملات التأديب لمعارضي النظام وبتبريك من المتشددين دينيا، تفاقمت أزمة التعايش السلمي وطالت قسوة الظلم كل الأشخاص المتميزين في كل مجال والشهيد فرج رحو دليل قبح المتجبرين، باستثناء من تميز بالنفاق، البلدات المجاورة الصغيرة هي الأخرى تفكك عرى تلاحمها بتشجيع من السلطة ليتسنى لها السيطرة على البلد تنفيذا لمآربها القبيحة. بعض البلدات فقدت خصوصية إنتمائها فيما البقية القليلة إحتفظت ببعض سِماتِ ما تسمى بالإستقلالية.

في كل يوم يكاد المتتبع يشاهد عمرانا جديدا في أكثر من حيٍّ وزقاق، مدارس ومستشفيات راقية تقام على الصعيد الحكومي والأهلي تتسابق لإستقبال الطلاب، التنافس للحصول على أعلى المعدلات بين الخريجين لنيل مقعدٍ في الكلية الأرقى كان شديداً. شهد العدو قبل الصديق لإرتقاء عاصمة الإقليم مراتب متعاقبة يُحسَدُ عليها ساكنوها.

في عموم جغرافية المنطقة الجبلية هناك ينابيع تتدفق بالماء العذب، وبغابات مكثفة بأنواع الأشجار، وعند كل سهلٍ ترى الراعي يسوق ماشيته نحو الكلأ ينشد على نايهِ حيران كَردي وسيساوه، الفتاة كشقيقها تشاركه العمل الزراعي لكل مراحله رغم مشقته، قليلة هي الأسر التي تولي التعليم اهمية إلاّ إذا كان المتعلم من البارزين بنتا كانت أم ولداً، وعائلة الطالبة فكتوريا شُخِّصَت أنها ضمن مجموعة النابهات تنتمي لقرية جمعت طبيعة السهل والجبل معاً.

في قرية وديعة يكاد لا يميز أين تنتهي حدود المدينة، ومن أين تبدأ حدود البلدة الصغيرة بسبب تشابك دورها مع بعضها، فرش السهل رداءه تحت قمم لينعم سكانها بسحر جمال جغرافيتها في الإقليم، على ضفاف جدولٍ يلتوي بين السهول، سكنَت قريةٌ وسكانها يتسابقون في تناول منهل التعلم قياسا الى الشعوب المجاورة، كما برز الذكور كذلك برزت إناث في تسلق

العلم، ولأن قريتهم تقع على مفترق الطرق وبفعل موقعها الجغرافي الجيد، أعارتها نخبة سكنتها زمن الرخاء والأمان الإهتمام اللازم لتصبح لاحقا مركزا مهما يستقطب الزوار للتبضع والسياحة ونيل الراحة معا، وبضاعتها لم تتجاوز الحرف اليدوية المرغوبة لدى الزوار. مساحة حقولها إمتدت آلاف الأمتار في كل إتجاه ومنتوجها هو الأرقى والأغلى، ماشيتها كانت لها بداية الإنطلاق للرعي لكن خاتمتها تأخذ وقت الإنتظار حالة التذمر.

بدت الطبقة الوسطى بالنمو الإقتصادي مما شجع الناس منذ إنشاء المدارس قبل قرن من الآن الى إرسال أولادهم للتعلم دون تمييز بين طفل وطفلة، تخرج الكثير من أبنائها ونمت مظاهر الثقافة بين أفرادها، تعين اغلبهم في دوائر مختلفة، من حسن حظ سكنتها أن أكثرية أبنائهم تعينوا في مدارسها وآلوا إهتماما جيدا بالتلاميذ، نبغ بعضهم ونالوا شهرة رفيعة. وممن برزوا كانت الطفلة النابهة فكتوريا التي حصدت في كل مرحلة دراسية مركز الصدارة عن جدارة، حصلت جراء جهودها أن ترتقي طالبة من ريف لأفضل مقعد في أرقى كلية، ولأن الطب مهنة إنسانية قبل أن تكون مهنية بحتة، وبسبب عشقها لمطالعة الكتب العلمية، كانت دائمة التواجد في مكتبة الكلية لتقرأ عن صناعة الأدوية بموازنة مع منهج كلية الطب؛ سايرت طموحها

بحثاً عن تطوير بعض اللقاحات الضرورية لأمراض مزمنة، فمزجت بين منهجين لأرقى كليتين معا، وهي مازالت طالبة أحدثت طفرة نوعية بين زملائها وزميلاتها أثناء التطبيق العملي على أجهزة المختبر الحديثة، كانت تجري تجارب على مختلف العقاقير لتحصل على نتيجة أفضل، كما أنها كانت تشارك مع زملائها الأطباء في أرقى مستشفيات العاصمة في إجراء العمليات الجراحية النسائية في التوليد. سيرة طفولتها لم تكن تشوبها شائبة، كذلك وفي جميع الأجواء التي عايشتها كانت الرائدة والآمرة، محبوبة هادئةٌ منطلقة في البيت والشارع.

إنسلخت فكتوريا من جسد العائلة لتداوم في العاصمة شوقا لرغبتها قي دراسة راقية لتتعلم جانبا آخرَ من العلوم الطبية، فوزعت وقتها بين كليتي الطب والصيدلة في آن واحد ، تميزت في كل مراحل الدراسة بتفوقها ونالت المرتبة الأولى في كل المراحل الدراسية الجامعية.

عند تخرجها أكملت تخصصها في مجال الأحياء المجهرية في لندن بناءً على ترشيحها من قبل مؤسسة دولية تعنى بشؤون صحة المجتمع، مثلما كانت المتفوقة دوما في عاصمتها، كانت البارزة أيضا في عاصمة الغربة، وبتوصية من منظمة يونيسيف، في العاصمة هناك عند تخرجها أغرتها الجهات العلمية أن تتعين في أرقى جامعة وبمغريات عديدة ليس لكسب

خبرتها وسلخها عن مجتمعها فحسب، بل لتسعى وتثابر في بحوثها العلمية خدمة للبشرية جميعا، لكنها فضلت العودة الى البلد ليس حبا بالوطن، بل لإفتقارها الى المعلومات التي ستغذيها عند بقائها في المهجر وهي عشيقة أجواء الريف.

تميزت أيضا بحدة ذكائها قبل دخولها المدرسة، ثم نالت إعجاب معلميها بعد أن أبلغت إدارة المدرسة ذويها أن لفكتوريا طاقات فذَّة كثيرة الإستفسار عن علوم الطبيعة وما قبل الخليقة رغم صغر سنها، أفراد أسرتها وخاصة البنات اللاتي يكبرنها كُنَّ يخجلن من بعض إستفساراتها والتي تتعلق بالإنجاب وهي بعمر لا يزيد عن خمس سنوات أو ربما أكثر بقليل، عمرها العقلي يفوق عمرها الزمني بكثير.

: ماما.. لماذا شقيقاتي ليس لهن أطفال وهن كبيرات، ماذا تفعلان أنت وأبي عندما تنامان لوحدكما تستمران في الضحك، لماذا لا ينام جنب شقيقتي الكبرى.

الوالدة: لا زلتِ طفلة، ستعرفين في ما بعد عن كل ما تسألينه وستخجلين عندها عما تسألين الآن!

فكتوريا: لماذا أبونا في الكنيسة يلعن الشيطان مرارا ويشكر ربه، وخارجها ينحرف لسانه باتجاه آخر؟

الوالدة: إسأليه طالما لك جرأة الإستفسار تطول حدود ما هو المسموح لكِ. أبونا ينفذ واجبه في الكنيسة مثله مثل بقية الناس

الموظفين في كل الدوائر.

فكتوريا: نعم نعم.. أمتعض عندما يهرع الأطفال لتقبيل يد الكاهن ويبتهجون بل يفتخرون أنهم نالوا بركاته!

الوالدة: أسئلتك تحرجني كثيرا يا فكتوريا، شأن وتصرف خاص بهم، إن رغبتِ تقبيل يديه راقبيه عندما يمر كل يوم ذهابا للكنيسة من أمام بيتنا.

فكتوريا: كلما نزور أقاربنا أو نخرج للنزهة، أراكِ تجملين وجهك وشفاهك، أنتِ جميلة يا ماما ولا تحتاجين للزركشة، هل الزينة حصرا للنساء والرجال مهما كانوا قبيحي الوجه مقبولين رغما عن زوجاتهم، فسري لي يا ماما لماذا هذا الإجحاف بحق أبي.

الأم: والدك جميل دون تجميل، وأحبه هكذا!

دعت إدارة المدرسة والديها لمقابلتهم لأن إبنتهم تثير الفوضى في الصف وإحراجها لبعض المعلمين والمعلمات عندما يسألونها: ماذا تتمنين أن تكوني في المستقبل؟

: كنتُ أتمنى أن أكون ولدا، أنا لا أكره البنت، لكني أكره الذي جعلني بنتا.

المعلمة: ولماذا تتمنين كذلك.

: لأن الأولاد يتبولون واقفين ولا ينزعون سراويلهم.

المعلمة: وما العيب في ذلك!

فكتوريا: يا ست.. أنا لم أقل عنه عيب وخزي، أنت التي تعيبين نزع السروال.

المعلمة: هل ثمة حجة أخرى لما تتمنين!

فكتوريا: لو كنتُ صاحبة نفسي لسَلَخت جمجمتي لأن في داخلها تعربد الشياطين!

إجتمعت إدارة المدرسة بالوالدين وأبلغتهم أن لإبنتهم طاقات غير مألوفة، والمدرسة غير قادرة على إشباع أسئلتها في كل المواضيع، وكان إقتراح المدرسة أن تُعرضها على لجنة خاصة لقياس حدة ذكائها واستنادا الى التقرير ستتخذ الإدارة القرار المناسب سواء بترحيلها قدما كل ستة أشهر، أو نقلها الى مدرسة النابغين وهو الحل الأفضل، وبما أن لمدينتهم لا تتوفر هكذا إمكانات سواء في تقييم حدة الذكاء أو مدرسة خاصة للأذكياء جدا، لم يكن لوالديها كافة المعلومات الدقيقة حول حدة ذكاء إبنتهم، وكل تفسيراتهم حول بعض تصرفاتها، أنها مشاكسة حد التذمر.

: والدي.. لماذا يُلقى الإنسان عند موته في الحفرة ويطمرونه بينما الحيوانات والطيور تتعفن في العراء؟

: لأن روح الإنسان مقدسة لا تموت.

فكتوريا: إذن لماذا نبكي عندما يدفن!

الأب: جسده يموت وروحه ترحل.

فكتوريا: لم أفهم قولك يا أبي.

الوالد: الإنسان مقدس عند الله، وقداسته يجب أن تصان.

فكتوريا: لا زلتُ لم أفهم قولك يا أبي.

الأب: أنتِ يا إبنتي.. ألا يكفينا أزعاج معلميك.. القدسية من شأن الله.. أكاد أكره نفسي بسبب أسئلتك التي لا أنا ولا غيري له القدرة على شرحها.

لم تكن تدرك معنى القدسية وكيف تقاس وما هو معيارها وهل درجاتها متساوية لدى جميع المؤمنين من مختلف الشرائح لمختلف الأديان، إن كان الأمر كذلك، ألا يصب الحقد إفرازاته من سموم على البشر أينما وجدوا!

: لا أعتقد كذلك.. إذا كان الله يحبنا كي نقدسه، إذن لماذا يتقاتلون، واحدهم يقتل الآخر.

: لماذا تحشرين مخك في أمور الله، دعيه وشأنه.

: والدي. أنتم تتشبثون وتتعلقون بأذيال ردائه وترفعون اليه صلواتكم، هل هو فعلا بحاجة الى أدعيتكم أم الى أفعالكم!

أملهم بمدرستها أن تعينهم لدراسة حالتها، لمّا نفذت كل الإجراءات لحصر طاقاتها ضمن محيط ضيقٍ، لجأت إدارة المدرسة حسب تسلسل مراجعة حتى وصلت الى وزارة التربية بعد موافقة والديها على إشعار وزارة التعليم العالي لغرض رعايتها لما لها من مستقبل مجهول، تابع والدها أمرها لدى

الوزارة، هل أن إبنتهم من النابغات حقا أم هي حقا من المعتوهات المشاكسات وهو عار عليهم، شكلت الوزارة وفدا ضم خبراء في علم النفس وقياس حدة الذكاء وزارت عائلتها للإطلاع هلى سيرتها داخل الأسرة.

أحدهم: يقال أن فكتوريا مشاكسة، هل حقا أنت كذلك؟

: وهل شاكستك بشيءٍ، هل تحرشتُ بما بين فخذيك وهو سبب فساد الأخلاق! أنت المشاكس لأن بداية حديثك معي بدأته بالإستفزاز، إن كان حديثك يصب في ذات النهج، فالأحسن أن تنصرف الى حيث أتيت.

: أعتذر.. أنتِ مثار الجدل في مدرستكِ، هكذا أُشيع عنكٍ، هل أنت مرتاحة في مدرستك ومن معلميها؟

فكتوريا: وهل تريدني السكوت عما يجري حولي، لو قفلتُ شفاهي فبأناملي أنطق.

: حدثينا يا فكتوريا عن مدرستكِ، هل هي جميلة ونظيفة!

فكتوريا: المقاعد مستهلكة كمخ بعضهم العفن.

آخر: سنخصص لك مبلغا من المال شهريا تصرفينه لإقتناء ما تحتاجين، أو بالأحرى ماذا تحتاجين كي نوفره لك.

: سؤال وجيه، إسأل والديَّ أولاً ثم مدرستي، لا أعرف ما الحاجة التي تنفعني وأنا جاهلة بها.

آخر: مثلاً كتب، مجلات، قصص أطفال ملونة، أيّ شيءٍ آخر تتمنينه لنوفره لك.

: أنتَ أَدركُ وأَفهَم من غيرك، أحب قراءة قصص الأبطال والعلماء لأنها تُشبعني.

: بماذا تنصحين أهلك ومعلميك بخصوصكِ؟

: أن يرتبط كلامهم بما يفعلون، لا أدري كيف يتناسق المشي عندما يستخدم الشخص نفس جهة جسده من الذراع والرجل في آن واحد.

تُقَلِّدُ السير والحضور يضحك.

: تضحكون وتسخرون من كلامي لأنكم لا تعرفون مما أُعاني وبقية زملائي من التلاميذ من بعض الجهلاء.

بعد متابعة بعض المنظمات النسوية لملفها فاقم واشتد عبء وحيرة أهلها، عندها أُحيل الملف لمنظمة اليونيسيف لتدارك الموقف. المنظمة بدورها بعد دراسته قررت درج الموضوع ضمن خطة رعايتها بكل السبل المتاحة وهي على إتصال دائم ومباشر مع ذويها، زار وفد موفد من المقر العام أسرة الطالبة للوقوف على مستوى ذكائها، هل تتميز بحدته وبِكَمٍّ يقاس حسب مؤشر الذكاء، بعد جولة من النقاشات بينهما دخلت مسؤولة الفرقة في حوار مباشر معها في مواضيع شائكة.

: ما هي هوايتكِ المفضلة يا عزيزتنا فكتوريا؟

: أن أكنس الشارع!

: ولماذا هذه الصنعة المنبوذة!

: عيب يا ست.! هل كل من ينظف هو منبوذ! أن من ينظف يجب تكريمه ليستمر بعمله طالما هو قادر على أدائه، أنتِ يا ست.. ألا تنظفين بيتك!

حقا كلامها واقعيٌّ ومنطقيٌّ، إن نظافة المدينة بنظافة شوارعها وأزقتها، وهو دليل رقيّ شعبها. يا سادة يا كرام.. لتكن ثيابكم متسخة قذرة لكن نظفوا عقولكم من ادران الخبث والفساد، لا يخدعنكم ديكور قامتكم، بأخلاقكم ترتقون ويرتقي المجتمع بفضلكم.

: أقصد انه عمل متواضع ومتعب.

: إذن لماذا تسألينني بمثل هذه السخافات إن تشكين بعبئه عليَّ! هل أوكلتِ مهام تنظيف بيتكِ لزوجكِ!

: عذرا حبيبتي فكتوريا.. أنت ذكية جدا وذكاؤك لا يتناسب هذه المهنة الوضيعة.

فكتوريا: أشكرك.

: لنعد بحدثينا عن المدرسة.

فكتوريا: لا أحبذ الدخول في أمر لا أقاوم تصليحه.

: لماذا يا شاطرة.. الأجدر أن نصلح من يُقَوِّم المجتمع.

: المدرسة مكان جميل ينقصه العقل، بعضهم وهم القلة تستوعب بما ينصحون، أنا لا أنصح من لا يسمع.

هل كلُّ المدارس تُطبِّقُ ذات المنهج التربوي التعليمي بنفس الوتيرة والإخلاص لجميع المراحل الدراسية، وهل كل الكوادر التعليمية مُعِدَّةٌ إعدادا مهنياً لتنشئة الأجيال الصالحة!

المسؤولة: كيف تقيمين النظام التعليمي بشكل عام، هل يحتاج لتحديثه لمسالك جديدة لا تعتمد الى الحفظ الببغائي؟

فكتوريا: سؤالك يحتاج الى جرأة في الجواب.

المسؤولة: مهما كان حرجا ومؤذيا نتقبله.

فكتوريا: إن كان إدراك عملية جمع (٥ و٧) في مرحلة متقدمة من عمر الطفل صعبٌ، فإنه سيتعلمها بعد فترة دون حاجةٍ للمدرسة، وإذا صَعُبَ إدراك منطوق ونتائج ما تسمى بالأواني المستطرقة نظريا لمرحلة ما، سيتعلمها وسترسخ في الأذهان بإجراء عملي. ماذا يفيد الطفل الصغير من تطبيق نظام الأسرة كإنسان بالغ، إذن أين حقوق الطفولة من ممارسة حريتها بما ترغب إن كان عبثا أو لهوا شاذا محض!

المسؤولة: وهل جميعهم أغبياء والإدارة بضمنهم، ما أعنيه أنهم يتغافلون مهماتهم ويلتهون بالحياكة مثلا!

: أنت غبية في جانب وذكية لجانب آخر. أنا لم أقل عنهم أنهم أغبياء، قلتُ يتجاهلون حديث العقلاء.

: وما الفرق بين الغبي والبليد!

: الحديث معك يسليني فأحببته، الفرق بينهما، كالفرق بين ضوء المصباح ونور الشمس، أو كالفرق بين بشرة البشر قاطبة وهي لحمية.

سكتت رئيسة الفرقة خجلاً وهي توزع عينيها بين الحضور بدهشة تحدث أعضاء فريقها بلغة أخرى، إستاءت فكتوريا ورفعت إصبعها بوجهها أنها تنكر إذلالها؛ هكذا فسرت؛ إنشغلت الفرقة مع بعضها فطرح أحدهم ويبدو أنه متخصص في العلوم اللاهوتية.

: من الذي خلقك يا فكتوريا.!

: ماذا تعني بسؤالك!

: وُلِدتِّ طفلة صغيرة والآن كبرت وأصبحت بنتا جميلة وستكبرين وتتزوجين وتنجبين كأمكِ.

: لم أفهمك جيداً.

: من خلق البشر.

: الكنيسة.

: وما شأن الكنيسة بذلك!

: أمي كلما تزور الكنيسة تُذَكِّرنا بما يقوله القس، أن الكنيسة تبارك الوالدين بنسل صالح، فهي من خلقتك وخلقت الكثير من الأغبياء مثلك، أنا أحبُ الكنيسة لأنها مكان هاديء ونظيف.

: الكنيسة تبارك الإنجاب ولا تخلق البشر.

فكتوريا: أتريدني أن أُعَلِّمك، اخجل قليلا. أفهمت. الكنيسة تقول وتكرر دوما أنكم اولاد الله، فَسِّر القول وعلمني إن كنت تعلم! لا بأس أنا لا اكره الأغبياء.

: عندما يموت الإنسان أين ترحل روحه؟

: ماذا تعني بالروح! هل هي اللقمة التي يمضغها البشر وهي بين أسنانه ثم تختفي ولا أعرف أين تذهب بعد إفراغها في المرافق! تسألني وأنت لا تعرف جوابها، هل هي كقطعة حلاوة نتلذذ في مضغها حتى تذوب، هل هي كحرارة نستمتع بدفئها كلما يشتد الزمهرير، لم ارَها فلا أعرفها.

والدها: حبيبتي فكتوريا.. الرجل يسألك وعليك أن تجيبيه بهدوء. لست طفلة، وإن لا زلتِ في العاشرة من عمرك، فتاة بعمرك مشروع زواج محتمل، قدمت اللجنة من خلف الأسوار لأجلك، كإستفساراتهم المحددة تجاوبين بوضوح ولا تستخدمي أسلوب السخرية معهم، لئلا يسيؤوا ضنهم بنا أننا نتباهى بذكائك، فهُم غرباء ولتكن صورتك أمامهم مشرقة.

فكتوريا: أجبته يا والدي، هل الذي خلقه هو أفضل من الذي خلقني، أليس هو من خلقنا جميعا! أفهمت يا بابا! وما أدراني أين تذهب روحك بعد وفاتك، هل شاهدت شيئا يخرج من الشخص حال وفاته، من السخافات أن يسألوا هكذا أسئلة

متواضعة. أنا أسألك: لماذا الأم تنجب والوالد محظوظ من هذه العملية المؤلمة، كان يجب أن يتناوبا في الإنجاب، أليس كذلك يا ماما!

: أنا أخجل يا عزيزتي من إستفساراتك.

إنتقل الوفد الى محور آخر في مناقشتها باستخدام أسلوب آخر في إستدراجها. قال أحدهم.

: صديقتي فكتوريا..أيهما أحب اليك الزهور أم العطور.

ضحكت باستهزاء وسخرية: سؤالك سخيف جدا، أسألك، ما الفرق بين الماء الذي تشربه وبين الصعيق الذي نصنعه منه أو الذي ينزل من السماء!

: جوابك صحيح يا فكتوريا.

فكتوريا: لا أتصور أنك مقتنع بجوابي.!

: جوابك مقنع جدا يا فكتوريا.

فكتوريا: جوابي يحتمل الإثنين، الصح والخطأ.

: كيف.؟ فسري لنا أوجه الإختلاف والتطابق رجاءً.

فكتوريا: ليس كل عطرٍ مصدره الزهور حصرا، وليس كل الزهور تُصلح لإستخراج العطور.

: فلسفة لا أستوعبها يا دكتورة الفلسفة.

آخر: في أية مرحلة دراسية أنتِ؟

: هذا سؤال صعب أحيله الى أمي لأنكم أهملتموها وأنا أحبذ أن تشاركوها معنا، في أية مرحلة أنا يا أمي!

: على اللجنة تقع مسؤولية تحديد موقعكِ.

: لماذا خلق الله الجبال والوديان؟

فكتوريا: وهل هو يتقن الهندسة ليبني الجبال من وديان عَمَّقَها! حاليا لا أعرف، فافهم رأيي حسب فهمك، لكني أعتقد، وقد تؤيدني، عندما خلق ربك الوديان كي تجري فيها مياه الأمطار خوفا من الفيضان.

: وماذا عن الجبال؟

فكتوريا: ليبني فوقها قصوره يشرف من قممها على رعيته إن كانوا متخاصمين !

: لو خيَّرناكِ أن ترافقينا الى بلد راقٍ في مدرسة تُشبع رغباتك لكل ما تحتاجينه وتتمنين إقتناءه، هل توافقين؟

: وما أدراك ماذا أتمنى من إحتياجات! مغريات السلخ عن أزقتي لا تنفعكم، لو كانت أسئلتكم ضمن منهج الإختبار لمزقتُ أجوبتي.

: نحن لأجلك عبرنا حدود بلدان عدة ، ولأجلك نتحمل قسوة مشاكساتكِ، الخير الذي يصيبك هو هدفنا، وكلما كان جليلا كنا اكثر سعادة.

فكتوريا: حقاً أنتم لطفاء كطفل يبتسم بوجه أمه وهي تنظف ثيابه عندما يلطخها بإفرازاته، أسئلتكم تعاني مثلي من التركيز حول هدفكم، لو رحلتم ؛ وهذا ما أتمناه سريعا أن تنفذوه فورا.

خرجت اللجنة بالإجماع أن التلميذة موهوبة بنعمة الذكاء المتقد، والجرأة في التعبير والبداهة في سرعة الرد، وفوق كل ذلك انها جريئة جدا ولا تخجل مما يساء فهمه، والمسؤولية الكبرى لرعايتها من ضمن إهتماماتها حصرا، ورفعت تقريرها بهذا المعنى الى رؤساء المنظمة لاتخاذ ما يلزم.

أوصت اللجنة ممثلي المنظمة في بلدها أن تثابر نشاطها في كل مرحلة دراسية وترفع تقريرا سنويا، وإلى أن تصدر قرارها إستمتعت فكتوريا بذكريات جولتها معها، رافق التقرير ملفها عند كل مرحلة دراسية والى حين نيلها شهادتها من الخارج في علم الأحياء المجهرية.

(٦)

في الإجتماع الدوري لمجلس أعيان البلدة وبغية الوقوف لآخر خبرٍ عن مساعي الخيرين بشان الزائرين، إستضيف نبيل ليدلي بما لديه من معلومات رصينة حول جهود المكلفين بالمتابعة. الجلسة تمتبحضور جميع الأعضاء.

يونان: مسؤولية مجلسنا تحتم على أعضائه متابعة ما يجري في محيط البلدة، تردنا أقوال ومعلومات تكاد تكون متضاربة بمعناها العام، هل على البلدة وسكنتها يقع عبء متابعة البعض من الشحاذين وغيرهم من قالوا عنهم أنهم من المعتوهين وليسوا متسولين!

شيلان: إرتأى مجلسنا أن نتباحث أمرا هاما جديدا في كل دورة، إن كان موضوع الإنسانية يحتم علينا الا نجرده في جدولنا، ما الضير لو بدأنا به حصرا عند كل إجتماع.

شامل: – بسخرية – إذن لنحول أسم مجلسنا الى منظمة خيرية لا تعني ألا بشان الغرباء!

لويس: كلما نؤدي عملاً خيرا للغريب والقريب هو فضل إضافيٌ يصيبنا، وليس أبهى مما نتمناه.

أنور: عذرا سيد نبيل.. المجلس إستضافك لتحدثنا أنت وليس أن نتحدث إليك.

نبيل: عندما يؤذن لي باب الدخول سأدخله!

يونان: أحاديث الزملاء كانت بداية التعريف عن موضوعنا، نجتهد حسب ما مسموح به لنا، هل ساحتكم هي فعلاً أوسع من صلاحياتنا ونحن نواب الشعب!

نبيل: إسمحوا لي تفصيل الحديث لأكثر من جانب وأنا أقدم جزيل شكري لمجلسكم الموقر. بداية أقول أن إستنطاق الحق ضروري، وأن مشروع تغيير المجتمع لا يحتاج الى رأسمال وثروة فائضة بقدر حاجته لفكر متفتح وعزيمة في التنفيذ، ان الإنسان أياً كان وحيثما ينتمي، هو ثروة وطنية أغلى من الذهب الأصفر والأسود، ولا يخضع بأي حال لمشرحة الأصل والإنتماء، ولا يقاس بما يمتلك من مؤهلات، من يتحمل نتيجة معتوه يفتقد الى قدرةٍ تمَيَّزَ بها العاقل؟ هل العلم وصل الى حقيقة شرح كل خلية دماغية وبالغ العلماء أن أعدادها بالمليارات، هل سبب لجوء بعضهم لمدينتا هو فخر لها أم إستغلال!

شامل: سيد نبيل.. ألآ تعتقد أنكم تجاوزتم الحقوق الممنوحة وفق القانون! أنتم لستم دولة لتشرعوا ما تشتهون، عندما لا نعارض مهامكم لا يعني اننا نساير لآخر المطاف، انتم لستم بدلاء عن سلطة الدولة بأيّ حال من الأحوال!

شوقي: أجهزتنا تراقب كل حركة إن كانت من صديق أو غريب، من الأجدر لو بادرتم بإشعارنا بما تنوون القيام به، لا

نسعى في بداية تسلمنا مهام المجلس أن ندخل في سجالات مع غيرنا بسبب تداخل المسؤوليات، نحن المعنيين بشان البلدة، أمنُها، خدمات موظفيها، نظافتها، وكل ما يخطر ببالك، إستشرنا قبل إقدامك لعمل ما وإن كان خيرا للجميع، وبخلافه سنسجل على نهجكم علامة التعجب.

نبيل: لستم كمجلسٍ منبعَ عزيمةِ عَمَلِنا، نشاطنا ذاتيٌّ منذ نشأته، مجانيُّ الأداء ومستقل الرأي في التخطيط والتنفيذ، لا تتعارض جهودنا مع أهدافكم إن كانت تهم الصالح العام، نراقب؛ ونأمل أن تشاركونا المراقبة إن شئتم؛ نبذل الجهود الذهنية والمتاعب المالية دون اللجوء ليمدنا أحدهم دعمه الضروري، في كل خطوة نخطوها تكون البلدة نصب أعيننا بمركزها ووزنها.

شامل: ثمرة تكاتفنا نحن الإثنين طالما تصب خيرا للشعب هي غايتنا ومسعانا عندما تقود الحكمة تثبيت النهج كمنهج، سيد نبيل.. عليكم ألاّ يتعارض مشروعكم لهدف نتبناه، الضرورة تتحتم؛ لأحقية وجودنا يتوجب عليكم أن تنهلوا من توجيهاتنا وتعليماتنا ما يفيدكم في عملكم، الذي لنا عليه مأخذ لنشاطكم، انكم تنفردون فكرة وتخطيطا وتنفيذا، وكأن الدولة؛ أو بالأحرى مجلسنا؛ ما وجِدَ إلا لأجلكم، ولكل عمل حسابه خاص!

نبيل: إذا توافقت الآراء لا حاجة للقلق، مسيرتنا ستستمر إن كانت بدعمكم أو دونه، ولن ننتظر ساعة بدء العمل من غير

إذن مجموعتنا، جميع العاملين تحت هذه الخيمة متطوعون نذروا جهودهم لنصرة المحتاجين وكل مظلومٍ أمثال مع نتابعهم.

شامل: كأنكم تتمردون على سلطة المجلس، نحن من يمثل الشعب وإرادته، أنتم من تمثلون!

نبيل: عندما إخترناكم كي تتجاوبوا مع الخير تجاه ناخبيكم، لا زال سيُفهم مسلطاً على رقاب ممثليه، هل ينفذ ما وعد به، أم كان وسيلة خداع ليعتلي الكرسي ! إنها وسيلة تحذير، أو صنِّفها بالإنذار إن حلا لكم.

شوقي: سيد نبيل.. أراني أن خطواتكم أوسع من صلاحياتكم، وهذا نذير تفردكم بصلاحية تقديم الخدمات.

نبيل: كي تقيم صدق أقوالي؛ وهي أقوال جميعنا؛ أدعوكم أن تجتمعوا مع النخبة المتطوعة أثناء أداء عملها، مجموعة البحث تتعامل مع الزائرين بحرفية تكاد تكون من مصدر أكاديمي بحت، تنسيق الأداء ينطلق من ذات الهدف الذي تتبنونه إن كنتم ترونه عملا جباراً.

في زيارة قصيرة الى أنشطة بهيجة مع صاحبها عبدالله، تبين أنها قطعت أشواطا جيدة في صداقته بحيث إئْتمن الى صراحتها ووافق على مصاحبة نافع الى جلساتهم المحددةِ أوقاتها سلفا، ويعتبرونها من أخلاقيات النزاهة والصراحة، كالعادة وعلى نفس المقعد جلسا معا يتناقشان بما تم تأجيله في آخر جلسة لهما.

إستغربت الفتاة أن صديقها يتمعن بدقة في نظره الى وجهها ويهز رأسه.

عبدالله: لماذا أنت جميلة هكذا، هل كل بهيجة يجب أن تكون جميلة أيضا، كأني أراك لأول مرة.

بهيجة: بمن تُشَبِّهني تحديدا، بحبيبتك مثلاً؟

: الذنب ذنبي خسرتها.

: هل كنتَ تحبها وتركتك، لماذا تخلت عنك؟

: كانت توبخني كثيرا كلما يحثني شوقي لها أن أقبلها!

بهيجة: وهل الضرورة تستوجب أن يمارس المحبون تبادل القبلات علامة على إنسجامهم عاطقيا؟

عبدالله: هي مفردة جميلة.

بهيجة تنظر الى ساعتها بسبب تأخر زميلها عن الموعد، يبدو على عبدالله القلق لعدم حضور صاحبه الجديد كما أنبأته أنه سيحضر معها هذا اليوم، لا يليق بها أن تكذب وهم في طريق تجدد كل يوم بمعلومة جديدة، خابرت نافع وصوت هاتفها مسموع، أنه جاهز وما أن تقفل خطها سيغلق باب المتحف خلفه نحو مقعدهم، حسنا أنه يكفي لثلاثتنا معاً، بعد صمت لم يدم طويلاً بادرت بهيجة مراسيم التعارف بين الرجلين وقد إستخدمت عبارات تزدحم إستعمالاتها في أتكيت التعارف في معظم الصالات الراقية.

بهيجة: لي الشرف صديقي العزيز عبدالله أن أقدم لحضرتكم إبن بلدتي الصادق جدا نافع.

عبدالله: صديقتي بهيجة، أتصور أنني لن أنسى إسمك لأنه يبتهج.. يبدو أني محظوظ اليوم لأن صراعي مع رأسي بدأ يخف كلما أرى عينيك تبتسمان لي.. أختي أعلم أن كل صادق هو نافع ايضا لكن النفع الأول هو الإلتزام بالموعد، هكذا كانت توبخني حبيبتي لو خالفت الموعد وإن كان لبضع دقائق، أتشرف به، أرجو أن يكون صادقا مع حواراته أيضا ونافعا للعامة "الصادق نافع" جملة مفيدة تعلمتها في المدارس، إستوعبتها جيدا والفضل في ذلك يعود لحبيبتي، أههاا، بدأ الصداع يلازمني يا أحبتي! إختصروا أحاديثكم رجاءً. قبل أن أنهزم نحو المجهول.

بهيجة: سلامة رأسك يا صديقي وأخي عبدالله، أُذكرك أن إسم صاحبي الصادق هو نافع.

بينما كان نافع يتوقع أن عبدالله يشد على يديه مرحبا بصداقته ويثني على مبادرته لكن الأخير أحبطه بقوله.

عبدالله: وبماذا ينفعني! أيعيد لى جميل ذكرياتي ولا اتذكر منها شيئا. ربما ذكريات طفولتي تحفزني أشَد نحو زمن المراهقة والشباب وعربدة تناقضاتها.

لم يبادره بنفس أسلوب الجفاء وبرودة الحس والعاطفة، لكنه وبناءً على تعليمات والده أن الكلام اللين يفرز عن ضرورات مهامنا لمساعدة من يحتاجها ولا يبخل بها.

نافع: إن إحتجتني سأساعدك يا أخ عبدالله.

عبدالله: هات لي حبيبتي إن إستطعت.

نافع: وليس مهمة أسهل من ذلك.

عبدالله: اتعرفها من هي!

نافع: عرّفني وإياها يا صديقي، ما اسمها، ما عمرها، ماذا تعمل، أين تسكن، هل هي جميلة كبهيجة؟

يبدو أن معاناة عبدالله وتعاسته أفقدتاه تجاوبا جيداً.

عبدالله: لا أستلم بركات الكلمات، عقدتي تفاقمت برحيلها، تعبيرك وحسن أخلاقك بماذا تنفعني وأنت أغرقت مركبي بفيضان أسئلتك.

قبل أن تتدخل بهيجة في إستلطاف الحوار بينهما نحو الإنسجام بين المتحاورين، سبقها نافع.

نافع: ما يضركم يضرنا ولا نختزل مسافاتنا، مشوار علاقاتنا مداه شاسع فإن لم تمَلَّ منه فصدرُنا واسع له.

عبدالله: طُرِدتُ من غرفتي، وأنا الذي يخشاه أحد لو عاشرهم بصدق. رأسي يكاد ينسلخ عن رقبتي، لماذا هذا الصداع يلازمني يا جماعة!

بهيجة: صديقي عبدالله.. في هذه المدينة وحصريا في مجموعتنا هناك تنسيق واتفاق مبدئي أن نشتغل بحرص لأجل العام، وأنت اليوم؛ إن رغبت؛ جزء من كياننا، لا أحثك الإسراع في الرد، ولا يعني رفضك أن نمسحك من خريطتنا.

عبدالله: قدمايَ وعقلي ساقاني الى هنا ولا أدري لماذا، ما أسم هذا المكان، رغبة مني أن ألتحق بركبكم ولحين من الزمن، هل ثمة من يقرر أن الإنعزال هو الأسلم والأضمن!

أحس نافع أن صديقه بدأ يتفاعل إيجابا معهم وعليه حثه لمواصلة نهجه الجديد.

نافع: أسلوب هندسيٌّ بمقاسات خاصة في إختبار علاقة صادقة لا يفندها سوى حفنة من المنحرفين.

عبدالله: حيثما أهرب تلاحقني عبارة الهندسة ولا تنظم لي متعة الإندماج معها كأيام زمان.

بهيجة: إطمئن يا عبدالله، إن واكبت مسيرتنا ستتخطى كل الصعاب إستسهل علينا معاناتك سنسهل عليك وطأتها، ولسنا بصدد تقديم شكرك لنا إلا بقدر تجاوبك مع حديثنا.

بعد سلسلة من تبادل الحوارات تبنت محور رفع الحصانة الملفقة بينهم، يحتاج البشر الى معرفة شخصية كل منهم للآخر، إستخدمت بهيجة لغة الجذب والتشوق حاصرت بذكائها ما تحوي الشخصية المجهولة ل عبدالله، وما أصعَبُها من جهود ذهنية.

بعد أن حصلت قناعته أن لا خطر عليه من أصدقائه، وقد يساعدونه في تخفيف أعبائه النفسية والجسدية، بات هو الأكثر اشتياقا لبحث أمور عن شخصية كل واحد منهم، وهذا ما خططت له بهيجة ونالته بسهولة. نافع حاول أن يسبقها في النقاش لكن عبدالله كان الأسرع، فبادر بالقول بصوت خافت.

: سمعت في هذا الحي يقال عني بالمعتوه، لا أخال أنكم تكذبونه، بصدق أقول من أكون وماذا كنت! ربما كلماتي موزونة، لكن ذكرياتي مسحت خارطتي من الوجود، اتذكر أحيانا أن غرفة في مكتب جميل كانت تجمعني بشابة جميلة ولست ادري أين رحلت، كأن عقلي قد أفرغوه من الذكريات. إن كنتُ أنا الذي لا أعرف عن ذاتي سابقا شيئا، كيف أنتم تعرفونني من أكون، لا أتذكر إلاّ بالحالة التي أنا بها الآن.

إفتقد عبدالله؛ كما سموه؛ الى مسلك يعينكم لتتعرفوا عليه دون عناء لإنشغالكم بالمعتوهة إنتقام، فإن كان كذلك كما زعمتم، لأي هدف صاحبتموه، هل عطفا عليه دون أن تعرفوا ما مضى من حياته الشخصية والإجتماعية، من يكون وماذا يشتغل وأين يعيش، هل له أسرة كباقي الرجال أمثال عمره، وما هو مصدر رزقه، من يتصرف كما لاحظتم عن مسلكه لا تستبعدوا أنه هارب إن كان سبب هروبه متخفيا من أزلام السلطة، أو من تسلط العشيرة ومريديها، كما يقول الفيلسوف "مارك توين –

أستطيع أن أعيش لمدة شهرين بتأثير مجاملة لطيفة– وهذا ما لمسه من حسن تعاملهم معه ويخص شكره وتقديره للأخت المحترمة جدا، هل يسميها سيدة أم آنسة بهيجة، وهل لهذه التسمية أهمية لدى عبدالله وهو لا يتذكر من هو، وماذا كان سابقا.

بهيجة: أخي وصديقي العزيز عبدالله، كل الذي يسمح لي نطقي أن أقول عما قلته إنه نابع من قلب نظيف نزيه، من الآن والى ان يرتاح فكرك، ستلقى من حيينا دون ثناء؛ ومن كل أفراده كل الترحيب والتقدير، الذي أدّيناه لك ليس منة عليك، ولا نحتاج لشعورك بالثناء لما نقدمه لك قطعاً.

عبدالله: كم كمثلي ترعونهم دون مقابل!

بهيجة: كل من يحتاج رعاية خاصة لا نبخل بتقديم ما نراه أن خدمتنا له ضرورة ملحةٌ، بل هو من صلب تركيبة مجموعتنا وأديناه وسنُؤديه دوما لكل من نراه يحتاج الى دعمنا دون مقابل.

عبدالله: لا أخال أنك نسيت ما طلبته منكِ عن إسمك.

بهيجة: عذرا أخ عبدالله، سؤالك عمن أكون، أنا آنسة ولستُ مرتبطة بحب الجنس، لي عدد هائل من الأصدقاء والمعارف وكأنهم إخوتي نتعامل معا وفق هذا المنهج وسأضيف إسمك الى القائمة إن شئتَ. الذي لمسته من حديثك وأفرّحني جدا إطمئنانك وثقتك بنا، هذا الذي يحفزنا أن نحث الخطى وصولاً الى هدفنا

وهو هدفك أيضا. وصيتي لك أن تحتفظ ببعض معلوماتك عن نفسك فإن شئتَ لاحقا يمكنك أن تبوح بها في الوقت المناسب، الذي نتمناه أن تهدأ أثناء حديثك ولا تتألم من ماضيك وإن كان مؤلماً وقاسيا.

حديثها نزل كالمرهم على الجرح فهدأ قلقه واضطرابه وإنساق دون وعيه نحو حديثها.

: في الحقيقة يا سيدة، همّي من همها، ولا أتذكرها إلاّ وهي مرتبكة تبحث بين الأوراق، ما هذه الفوضى، تعذبني، ربي إبعد عنها العذاب، إنها أجمل منك يا آنستي، تقاطيعها شبيهة بالعذراء أمنا، تشاركني الهم الوحيد الذي أتذكره، كلانا فقدنا أسرنا بجميع أفرادها، أتذكر الآن جيدا أن مدينة تناسبنا مع سكنتها، كانت أسرنا تتزاور دوما، أتذكر يوم زارت أسرنا حدث ما لا يتوقعه البشر، قصف وهجوم بكل أنواع الأسلحة، النتيجة سكت كل حي بما فيه الطيور والحيوانات، أُبيدت بالكامل بناسها وحيواناتها وطيورها وكلانا كنا في العاصمة للدراسة، سيبقى هذا الخبر الوحيد الذي تحتفظ به ذاكرتي، ودونه لا أبكي إلا على الفراق الذي حطم كياني وأباد مستقبلي.

نافع قاطع حديثه كي يتمهل بالصبر، فهم لن يستعجلوا في التعرف عليه إلاّ إذا رغب بذلك، الذي يهم الحي أن يصل سكنتها الى غاية وهي كشف الأسرار عن طريق نبش الأخبار،

ولأن عبدالله بات مرتاحا من صدق أصدقائه فلا يرغمونه أن يحدث عن نفسه إلاّ بقرارة يعتقدها أنها تفيده هو حصرا، أو من هم مثله من المشردين.

نافع: إذا كنت على عجل لأمر رحيلك وتخليك عنا، دع معلوماتك خزينة مخك، وكلما طال إندماجك بصحبتنا سيتسع مجال نقاشنا نحو الأفضل، وعند ذاك سنطلب منك ما أنت بصدد طرحه، جعبتنا تتسع للكثير ولكل القضايا الشائكة والبسيطة، كما ذكرت عزيزتنا واضيف، أن مدينتنا الملقبة بالفاضلة إستقبلت نماذج يرثى لها من كلا الجنسين، عالجنا بعضها والبعض في طريق علاجها ولن تكون الأخير يا أخ عبدالله، مدينتنا سرير ناعم للمحتاجين.

مباديء الإنسان الشريف تقوده بلهفة بالتقرب والتقدير لمن يصفهم بالمخلصين له، ولا يتردد أحدٌ من الإندماج في هذه المجتمعات لأنها في الغالب تتغازل لبناء الإنسان إنسانياً، فكيف بالذي يحتاج الى رعاية خاصة ذكرا كان أم أنثى أمثال عبدالله وإنتقام، هذا الثنائي الغريب في الأطوار والعجيب في المسلك الشخصي قد تجمعهما نكبة إشتركا في خلقها، ونماذج هذه المدينة هي من يطمح لها كل محتاج.

عقدة فكتوريا قد تكون محطة مهمة وصعبة في نفس الوقت، وهي نابغة الذكاء، تحولت مما كانت عليه من حال الى ما آلت

اليه الآن، أغلب الظن أنها كانت ممن قادت مجموعة في مجال عملها وصدمتها حالة مؤثرة فوق مستوى تحملها، كان هذا التحليل بداية نسج خطة للتقرب نحو وجدانها، نفسيتها وإن بدت معقدة بفعل فاعل، إذن التودد من أجل فك رموزها يجب أن تكون من اولويات إجتهادات الفريق الذي يحتك معها ولأجلها.

(٧)

عادت من جديد جولات الثنائي غريبة وصوفية بعزم وحزم، وقررت اللجنة أن تكون محاولاتها القادمة مع فريستها فكتوريا مليئة بالمفاجآت. سجل صفحتها المدرسي في المرحلة الإبتدائية يؤكد ما قالته اللجنة بهامش الإدارة يقول، "لها ذكاء خارق ومستقبل باهر بانتظارها " رغم أن مطالعاتها المنهجية للمواد الدراسية لم تكن مكثفة لكن درجاتها الإمتحانية تاتي بالكامل، تربعت في كل المراحل الدراسية عرش الأوائل، وآخر وثيقة حصلتها كانت معنونة الى كلية الطب وهو ما كان طموحها أيضاً، وشأنها مع كلية الطب كشأن بقية المراحل الدراسية، نقاشات وجدالات حادة كانت تثار داخل أروقة وصالات الجامعة في العاصمة، احيانا تستحق السخرية لغرابة إستفساراتها، واحيانا تحفز الكوادر التدريسية إجتهادا لما تطرحه من معلومات جديرة بالإنتباه.

برزت أكثر بعد أن وضعت خطوتها الأولى لبناء مستقبلها، ولأن تركيزها للمحاضرة كان دقيقا والمحاضر ينتبه لحالها حصرا. أثناء المحاضرات ولجميع أساتذة الكلية، كانت الوحيدة التي تجلب إنتباه المحاضرين وزملائها الطلبة لأنها لم تكن تسجل أية ملاحظة عن المحاضرات كما هو المتبع، بل كانت

تركز على السمع فقط وتخزنها في ذاكرتها وكأن عقلها جهاز تسجيل، كل المحاضرين في الكلية كانوا ينصحونها أن تدون ملاحظاتها عن المحاضرة، وتلبية لرغبة محاضر ألحَّ أن تدون ملاحظات عن محاضرته، أخرجت من حقيبتها دفترا صغيرا يمكن حفظه في جيب السترة، أثار ما تدونه إنتباه أحد زملائها بأنه بعيد عن مادة المحاضرة بل أنه يميل الى خدش على صفحة الورق، سألها الطالب عن معنى هذه الرموز، فقالت له– ليس من شأنك أن تسألني– سمع المحاضر حوارهما فاستفسرهم عما يشكون، توجه نحو مقعد فكتوريا وشاهد ما خطته لا هو نقش ولا زخرفة وكأن طفلا مرر قلمه دون أن يدرك ماذا يفعل أو ماذا يريد أن يفعل.

المحاضر: ماذا نقشت يا فكتوريا!

فكتوريا: ألم تطلب أن أدون ملاحظاتي؟

المحاضر: بلى طلبت، ولكن ماذا دونتِ يا ترى!

فكتوريا: الذي ترى يا دكتور. أفهمت!

"أفَهِمت" عبارة رافقت حديثها مع كل من تحدثه دون إعتبار لمستوى محدثها، ولأكثر من مرة نبهها المحاضر أو بالأحرى حذرها من إستخدامها مع أساتذتها، كانت تتأسف وتعتذر أن أسلوب حديثها غير مقصود بنية سيئةٍ.

المحاضر: عالم نفساني قد يفسر ما دونته يا شاطرة.

فكتوريا: عذرا حضرة الأستاذ، دونتُ ملخص ما قلتَه.

المحاضر: لا أرى أثرا لكلمة أو لغز كما تعودناه أيام دراستنا، أرى فقط خطوطا ونقاطا ودوائر ليس إلاّ، نحن لسنا في قاعة الرياضيات، فسّري لي ولزملائك على اللوحة ما نقشته من أشكال هندسية، محاضرتي يا شاطرة ليست عن علم الرياضيات، أتحفينا ببسمة يا فكتوريا الفنانة!

كأن الأستاذ يسخر منها ومما نقشت، توجهت نحو المنصة واستنسخت على اللوحة ما كانت قد دونته على الورقة، المحاضر وجميع زملائها إندهشوا بأن نقشها لا صلة له بمادة المحاضرة، لو أقنعت زملاءها الطلبة عبر النقوش التي زخرفتها بأنها تخضع لما شرحه المحاضر، فالمحاضر سيوبخها بعنف لأنها تسخر منه ومن مادته، باشرت بالشرح تشير الى كل نقش وتفسره حسب رؤاها.

فكتوريا: حضرة الأستاذ المحترم، زميلاتي زملائي الطلبة، لا تستغربوا عندما أربط مادة الرياضيات بالعلوم الطبية، بل ستستمتعون أن أصل العلم إنطلق من أسس رياضية، إنتبهوا لهذين الخطين المتوازيين أحدهما ثخين سميك وطويل والثاني رفيع وقصير، يمثلان الجزء الأول من محاضرتك أستاذي الفاضل، وهي عن العلاقة الزوجية بين الرجل وزوجته وليس

عن العلاقة الجنسية بين جنسين غريبين، وأنا أستوعبها جيدا، قليلا من الصبر يا زملائي.

المحاضر: كيف تربطين بما قلته عن العلاقة الزوجية والعلاقة العاطفية ونتائجها؟

فكتوريا: لأن في حديثك أستاذي المحترم ذكرت فقرة عن العلاقة المشروعة بين الجنسين وميزتها عن المشبوهة، لأن المولود في الحالتين يختلف إسمه، للحالة الأولى ندعوه الطفل الشرعي، يتبناه الوالدان بالعاطفة والحنان والرعاية.

المحاضر: طيب يا فكتوريا..وإن كانت قناعتي ضعيفة بما شرحتِ، لكن كيف تفسرين نتائج العلاقات المشبوحة المحرمة شرعا وأخلاقاً!

فكتوريا: نعم أستاذي المحاضر، في الحالة الثانية نسمي المولود باللقيط نتج عن مزاولة العمل الحرام، وهو منبوذ ويرمى في المزابل، وقد تفترسه القطط والكلاب، وفي أحسن الأحوال تتبناه عائلة ما يكتسب إسمها.

المحاضر: الفقرة الأولى أقنعتني لحد ما وأجدتِ شرحها وأشكرك عليها، اسمعوا أولادي الطلبة، أن قانون الإنجاب ما لم تتوفر فيه الدعائم الشرعية يُعتبر منافيا للأخلاق، أثني على إلتفاتتك القيمة، كمّلي شرحكِ يا شاطرة.

فكتوريا: أشكرك دكتور على تفاهمكم مع ما شرحته إستنادا الى ما رسمته، أمّا هذه الخطوط القصيرة المتقطعة هي عبارة عن مراحل تكوين الجنين خلال الأشهر الأولى من الحمل ولا يزال الجنين بقدر إبهامي.

المحاضر: كي يكون شرحك دقيقا وعلميا، حجم الجنين يختلف باختلاف الجينات التي ورثها عن الوالدين، ربما يتراوح حجمه بين حجم الإبهام أو اصغر بكثير، على أية حال، لنستمع بقية مدلول زخرفتك.

فكتوريا: قلت يا دكتور أن غذاء الأم ضروري جدا لنمو الجنين نموا صحيا سليما، وقد شرحتَها بالتفصيل، فإعادتها من قبلي أمر أكرهه، هل أدركتم! زملائي الطلبة؟ الغذاء الجيد ليس بكميته يفيد الجنين كما ذكره الدكتور، هل أستمر أستاذنا الكريم أم لديك ملاحظة حول الخطوط المتقطعة.

المحاضر: أكاد أشك بها، انتم يا طلاب، هل إستوعبتم ما قالته زميلتكم، أم تحتاجون الى شرح أكثر لأساعدها!

فكتوريا: حضرة الأستاذ.. ما ذكرتُه إستنسختُه من حديثك، ألَم تقل أن الجنين يتسارع في النمو داخل حوض أُعِدَّ له حصرا ينعم بالسباحة فيه!

المحاضر: بلى قلت، حسنا فعلتِ، إستمري.

فكتوريا: بالحقيقة يا دكتور، تشجيعك لي مثار دهشتي وتقديري مشكورٌ عليه، أما النقاط المتبعثرة داخل هذه الدائرة المبعجة بفتحتين تدل على الإجهاض أو التهديد بحدوثه إن كان عمدا أو عن حالة مرضية. بودي أن أسمع مداخلة منك يا دكتور أو من أحد الزملاء.

المحاضر: أنتم يا طلاب العلم والمعرفة، أليست فكتوريا زميلتكم وفي مرحلتكم تجتهد وتبتدع وتختصر الجهد في تدوين المحاضرة، بالحقيقة أبدعتِ يا فكتوريا.

فكتوريا: حضرة الأستاذ لم يبقَ لديَّ ما أزيده توضيحا سوى سماعي لملاحظاتك، وستبقى هذه القصاصات في حقيبتي أعودها كمصدر، وربما لا أحتاجها لأني طبعتها في مخي. أتصور حديثي واضح يا أستاذ، أفهمت!

أدار المحاضر عينيه على اللوحة تارة وفي وجه فكتوريا تارة أخرى ولم يستوعب الربط بين ما قالته وما دونته وكيف أسهبت في شرحته. أدار وجهه نحو الطلاب وباسلوب ساخر تحدث شارحا الربط بين القول والنقش قال.

المحاضر: بديع جدا أن نربط علم الطب بهذه الطريقة مع الفن الزخرفي، إقتدوا أعزائي الطلبة بزميلتكم في تدوين ألغاز ورموز عن شرح المحاضر لمادته ولأيّ فرع يكون، في نهاية السنة الدراسية الحالية سنكلف فكتوريا أن تلقي محاضرة حول

أسلوبها في حفظ المادة وأرشفتها، في نهاية المحاضرة أحاطها زملاؤها بمرحٍ ليشاهدوا ويتعلموا في إختصار الوقت والمادة لمتابعة شرح المحاضر، حزمة من الأسئلة طرحها الزملاء ليتعلموا.

أحدهم: هل أن هذين الخطين يجب أن يُرسما بنفس الحجم والطول، وهل أن هذه الدائرة المزعجة تمثل بصدق عن الإجهاض، وكيف تميز الإجهاض بكل أنواعه المصطنع والمرضي؟

طلبت منهم الجلوس في أماكنهم لتعيد شرح زخرفتها، توجهت ثانية نحو منصة المحاضرة لتعلمهم. أشارت إلى نموذج اللوحة بشكل واضح.

فكتوريا: تمعنوا جيدا بالنظر الى الشكل قبل أُفسِّرها لكم.

طال تفكيرهم، وكلما كانوا يتعمقون في تفسيراتها كان تركيز فكرهم يتشتت لأنهم لا يستوعبون منه شيئا إطلاقا. تمنوا برجائهم أن تعينهم بشيء من الإيجاز لشرح خزعبلاتها.

فكتوريا: إمسحوا من عقولكم ما قلته للدكتور، أفَهِمتُم! وكل الذي أسمعته وأسمعتكم إنما هي إجتهادات في فن المراوغة والإقناع، والدكتور بات مقتنعا بتفسيراتي دون شك، ولا أضن أنكم تختلفون معه في قناعته، ولا أخال أنكم لا تقتنعون بما يخالف ما قلته له وما سأقوله لكم، ركزوا معي الى الخطين،

وقلت إنها ترمز الى العلاقة الزوجية ولم يبدِ الدكتور إعتراضا أو تفسيرا عنها.

أحدهم: لأن الخطين يختلفان في الطول والعرض، هل يرمزان الى خشونة الرجل ونعومة الأنثى؟

فكتوريا: هذا الذي لم يسألني عنه الدكتور وأنا أعتب عليه، إختلاف الخطين يعني إختلافاً في الجنس كي أُفرغ من مخكم الزواج المثلي، هل لا زلتم لحد الآن على قناعة بما قلته، هذان الخطان يا زملائي وزميلاتي يمثلان في علم الرياضيات المستقيمات المتوازية لا تلتقي.

آخر: إذن كيف يتزاوجان بانعدام اللقاء!

فكتوريا: لا زلت متأثرا بما قلته للدكتور، قلتُ إمسحوا من مخكم ما قلته له.

آخر: إذن يا زميلتنا عَجِّلي تنوير مفردات نقوشك وسَهِّلي إستعابنا لها!

فكتوريا: ولكن في الخيال قد تلتقي لأن للضوء مداه في السير سيتلاشى لمسافة ما حتما، لأنه ما زالت نجوم تُسَيِّرُ أضواءها يكتشفها العلماء قرنا بعد آخر أفهمتم هذا الفرع!

هزَّ إختلافها في شرح الفصل الأول من خارطتها لدى البعض دون أن يشرح سبب الإختلاف. ولم يعارض أحدهم على مساحة التباين بين الشرحين!

أخر: هل نتركز في شرح نقوشك على مبدأ تعلمناه من الرياضيات فقط، أم سيدخلنا مفهومك لعلوم اخرى؟

: جميل .. جميل جدا طرحك ومشكورٌ عليه. وإذا فسرنا الخطين المتوازيين لاهوتيا، فإنهما يمثلان رأيين يختلفان، كل خط يمثل مذهبا، فإذا كان أحدهما يرمز الى رأي العلم في تكوين الخليقة، والثاني الى رأي الدين بأن ليد الرب أمراً في ذلك، ولا يلتقيان معا، بل كل رأيٍ ينفي الآخر مضمونا ونصا، فإن كان راي الدين أن الرب وزع تعليماته عبر ممثليه هو اختار مندوبيها، فإن العلم يتشبث بجملة أدلة دامغة عبر تطبيقات عملية لفكرة الخليقة وإن بدت بسيطة للوهلة الأولى، إستوعبوا وافهموا.

إنقسم الطلاب الى إجتهادات في تفسيراتها، شريحة إلتزمت الصمت خشية إعلان رأيها صراحة لأنه يعارض دور الخالق، وقسم آخر منهم إستجابوا لها بالموافقة بهزة الرأس. كيف لم ينتبه المحاضر الى فكرة أن الخطوط المتوازية لا تلتقي، ودرسوها في مرحلة المتوسطة ضمن منهاج الهندسة! استمرت في شرحها.

: وعن الخطوط المتقطعة هذه، هي رمز الدلالة على قصر الحياة لجميع الكائنات، جيل يأتي وآخر يغادر، وكلما صغُرَت النقاط والخطوط تدل على أن علاقاتنا الأسرية جيلاً إثر جيل ستتقلص لكن لا تتلاشى.

آخر: أعتقد أنكِ أخطأتِ في هذا التفسير يا زميلتي، الزواج يزيد من لحمة الأسرة.

فكتوريا: أنا لا أُفَسِّرُ عن غَيب، مجتمعاتنا بجميع أفرادها تنقطع إنتماءاتهم الأسرية عندما يغتربون في بلدان نائية، وستعيش حياة الأسرة الحيوانية كل يتنازع مع أفرادها حسب مصلحته. من يعترض المجال مفتوح للنقاش في هذه الحالة.

أحد الطلاب: لكن يا زميلتي، إن الإغتراب فُرِضَ علينا، فما شأنه في عملية ضعف العلاقة الأسرية.

فكتوريا: وقت وصول المغترب أرض المهجر، لا يفكر بالعودة للوطن مهما كان السبب، إلاَّ ماندر، إذا جال في خياله مبدأ العودة، إذن لماذا جازف، وباع ما كان يمتلك لقاء خروجه من بلده! المنطق يقول، لأجل حفنة بسمة نجازف بالعمر نحو المجهول!

للمرة الثانية أبدى الطلاب إعجابهم بربط الرمز بشرحها وباسلوبها العلمي، ثم إنتقلت الى الجزء الآخر من زخرفتها. وحثتهم على الإنتباه لأنها مصيرية لدى بعضهم، لكنها لا تحبذهم اللجوء الى التشدد والتعصب لما ستذكره من شرحها.

: لاحظوا معي عن الدائرة ولها منافذ وفتحات، إنها تمثل دورة أو دائرة بما لا يقبل الشك، انها الحياة وفق المنظور اللاهوتي المريب.

زميل لها: وما شأن اللاهوت في تركيبة الحياة يا فكتوريا، الدين لا يعيق مسيرة البشر.

فكتوريا: صحيح يا صديقي، لكن كل الأديان دون إستثناء تعزو أن الإنسان مخلوق وليس مصنوعا باستثناء آدم وزوجته، وكل الأديان السماوية والإنسانية يغلفها إعتقاد من يسمح لنفسه الخروج من محيطها يعتبر منبوذا.

آخر: لنتوقف عند هذه الملاحظة قليلاً، هل فرض ربنا سياجا لكل معتقدٍ لا يتجاوزه من بداخله!

فكتوريا: وهذا الذي أنوي شرحه، بغض النظر عن وقوع أيّ شخصٍ تحت طائلة المساءلة ومحاسبته، يقرها العرف الذي ينتسب اليه، إذا ركزنا النظر على الدائرة وما في داخلها، تفسيرنا يكون كالآتي، للدائرة فتحات ولا يصدها باب، ولا جنود يحرسونها.

زميل آخر: أي أن الدخول والخروج سهل وجائز، لأن "الرب" حسب إعتقاد البعض منح حرية الإختيار.

فكتوريا: لكن لأمر الرب تتنصل وتتمرد بعض الجهات تنفيذ قراراته، فإن تمنى البعض العيش تحت سقف هذه الدائرة أو التمرد على تعليماتها فطائلة عقابه يقرها رب تلك الجهة.

آخر: نخشى أن يكون ربنا قد جهز بقناصين مخفيين لإصطياد المتمردين.

فكتوريا: لاحظ يا زميلي جيدا، أن بعض النقاط تبدو وكأنها في خصام والبعض منكمش برعبه، تلك هي رموز القيادة البليدة كقيادة بلدنا إبان حكم وُصِفَ بالديكتاتوريات لمّا وزع عدالته القمعية بالتساوي حتى على رفاقه. ربما أشبعتُ طموحاتكم! هل من ملاحظة! إفهموا ماذا أقصد واسألوا دون تردد لأني لا أقمع السائل.

أحدهم: زميلتي فكتوريا.. ملاحظاتي ستكون حول اللاهوت والأديان، أتابع ما تُنشر من آراء على القنوات الألكترونية حول الأديان بشكل عام، أكاد أجزم أن الدين مستهدف من قبل أحزاب تبنت الإسم دون الجوهر، ومنهاجها لا يخدم إلاّ ما تتبناه مصالحها.

فكتوريا: لا غبار على قولك، هل من ملاحظة أخرى؟ – سكت الجميع– إنتبهوا زملائي، أن ما شرحتُه للمحاضر إن كان راضيا أو ناكرا له، يختلف جوهريا ومضمونا عما قدمته لكم، هل كلكم تفاعلتم إيجابيا ما قلته الآن؟

أحد الزملاء: زميلتي فكتوريا.. هذا التباين في الرأيين، ويكاد البعض يتفق مع النهجين، كيف نسجته وبأيِّ صيغة أفهمت الأستاذ المحاضر وأفهمتِنا بنص يعارضه!

فكتوريا: لا أصف المحاضر بالغباء لأنه لم يرفضني، فبماذا أصفكم أنتم بعد سماعكم ما يختلف عن الشرحين، ولأني

صريحة، أنكم الأغبى لأنكم صدقتم ما قلتُهُ.

زميل آخر: ما هذا الهذيان يا فكتوريا، إن كنا نحن الطلاب سُذّج وتفاعلنا مع طرحكِ، هل الدكتور هو الآخر وقع في شِباك شرح خزعبلاتكِ!

فكتوريا: جيد.. جيد جداً يا زميلي، الذي قلته سواء لكم أو للأستاذ المحاضر، إنما هي ثرثرة فارغة ضمن فلسفة المحاججة لا علاقة لها بالمحاضرة، ولا بشخبطة الخطوط أفهمتم! وليس لدي أكثر لأُفَهِمَكُم لأنكم تتلقون المعرفة دون جهد المعارضة. نحن قاطبة مبتلون بعاهة السكوت، وكأننا ملزمون بتبنيها دون وعيٍ.

الجدير بالذكر أنها عشِقَت العِلمَ وتزوجته فأنجبت الشهرة والجاه معا، وفي خضم تشعب مناهج الدراسة في جميع مراحلها تنال المرتبة الأولى، وأثناء دراستها وقبل تخرجها شاركت الكوادر المتقدمة من أطباء قسم النسائية في عمليات التوليد الطبيعية أو القيصرية، فنالت ثقة الفريق الذي عملت معه، وفي نهاية سنة دراستها الأخيرة وقبل إحتفالية التخرج، إستلمت مهمة معاونة مسؤولة النسائية في مستشفى يتميز بخبرة منتسبيه بما في ذلك جماعة التمريض من كلا الجنسين، جميع أقسامه وغرف المرضى تكاد تكون مشغولة باستمرار وزبائنها عادة تكون من ذوات المركز الإجتماعي زوجات الوزراء أو نواب البرلمان.

تعرفت خلال فترة قصيرة من عملها على نماذج متميزة لشخصيات من مختلف الأديان والمذاهب والقوميات ونالت ثقتهم وثمنوا إخلاصها بهدايا وعطاءات مادية ومعنوية، وفي الغالب تمتنع عن إستلام الهدايا المادية لكنها تفرح بكلمة شكر وثناء أكثر من قلادة ثمينة قدمها لها وزير المالية، وبحضوره أهدتها الى أفضل ممرضة نشيطة في قسمها فشكرتها الممرضة بينما أبدى الوزير إعجابه بها وبما فعلت.

سيدي الوزير.. لولا هذه الممرضة المحترمة لما برزتُ في مجال مهمتي، إنها نصف خبرتي وكل طاقتي، أخلاقها لتأدية واجبها معي زادتني طموحا، كلمات الإطراء تحفز فيّ ذروة أنشطتي وإبداعاتي، والذي ارجوه من كل مراجع يلجأ اليَّ لا أُكَلِّفه منة بل هو حق اؤديه له وواجب عليَّ تنفيذه، تحياتي للمدام ولطفلها الحياة الكريمة ولك المقام القدير سيدي الوزير.

إنحنى بقامته الطويلة وقبل يديها شاكرا أسلوبها الذي يغذي جذور خبرتها وتفانيها، أبلغها ووعد أنه سيتصل بوزير الصحة لتعيينها في نفس المستشفى إستثناءً من نظام التدرج الطبي، سجَّل سكرتيره ملاحظته بخصوصها.

إنتشرت أنباء عن "الإبادة الجماعية" لبعض المناطق وشملت بعض القرى القريبة من بلدتهم، على إثرها فقدت أسرتها التي كانت في زيارة لقريب لها أثناء قصف البلدة وباتت مقطوعة

النسل. إنسجمت رغما عنها بأحاسيسها وبكامل عواطفها مع جو المستشفى فتحولت الى صديقة للمريض والحارس والخادمة، وعن زملائها، إنها الأقرب الى نفسية المشرف المهني على الأجهزة الألكترونية التي تحتاجها في المختبر والذي إستلمت مهمة إدارته. أجادت التعامل المهني بحرفية ممتازة مع كل المراجعين ولمختلف المستويات الإجتماعية، إداريا ومهنيا، الى جانب إخلاصها كانت حازمة أنها تتصرف وفق ما تمليه مهنتها.

(٨)

الحاقدون على مدينتهم الفاضلة يتربصون الفرصة ليقتحموا تكاتف وتماسك اهلها. تابعها العم نبيل منذ أول يوم إلتقت بهيجة بالرجل المعتوه عبدالله ليحرصها. نقلت اليه ما حققته طيلة الفترة، فقبَّل رأسها وحفظ السر كما حفظته هي باستثناء مستشاريها نافع وماجدة. هل حقا أن هذا المُقعدُ الكئيب يحتاج هذا العناء والمخاطرة، ربما أن معدنه لا يقدر بثمن علبة كوكاكولا، مع تضاعف مهماتها بعد التعرف على المشبوه، تَقَوّت عزيمتها بأن شيئا جسيما قد تؤديه لحارتها تنال خلاله شكر أسرة العم نبيل وسكنة الحي اجمعهم، وستحتفظ بالشهرة لمدى حياتها المقبلة.

حياة الشرير غالبا مُترفة لأنه يتمادى في شره ليعيش حياة البذخ والترف، وهو وحده يفترس الكرم والفضيلة، والفقير هو الذي سيدفع فاتورة الشر لأنه يجر خطاه نحو العذاب دون أن يتذوق طعم الحق والعدل.

طالما الحب فيه ألم، فيه الأمل ايضا لتزيح هموم المحبين، وطالما أن الحب فيه بؤس وعذاب، فيه أيضا فرح وسرور وانشراح ساعة المناجاة وقت اللقاء، فما أطيب اللقاء وما أصعب الفراق، في كل مجتمع وعموم المجتمعات في الأزمنة كافة،

متدينة كانت أم علمانية، حضرية كانت أم متخلفة، يبقى الغنيُّ أكثر تشبثا بحالة الإسقرار لمركز السلطة طالما تحفظ وزنه، والأكثر بغضا من أجل عدم إجراء التغيير والتحول مخافة أن تزاح مكتسباته بعملية التحول.

ومع كل سلبيات هكذا فرزٍ بأن الحقد والأنانية إن كانت تحيط بنا، فإن حق الجود والفضيلة لن تغيب عن مغزى الممارسة اليومية لحياة مجتمعٍ يرنو لِسِمَةِ نهج الإجتماعية، إن كان هدف بهيجة إخضاع شباب الحي لمآربها فإنهم لا يَملّون عن مجاراتها وهكذا تستمر لعبة الشد والحل بين أفرادها، كل شاب يتمنى أن تكون من نصيبه وتكره منافسيه دون أن يكون أفضلهم بحسب تفسيرها.

كلمات العم نبيل كأنها خيرات الحصاد يجنيها الحي لتصقل عقول سكنته، فالمرأة التي تحصل على حقها بالبكاء تُعتبر مكروهة ومنبوذة، والإسراف في الحب بكل أنواعه يفقد توازن المحب وأخيرا سيخضع لسيطرة الحبيب ليستغله كما يشاء، إيّاك يا محب أن تغوص أعماق الغرام فمحيطه شاسع لا يرحم، وإيّاك الإكثار من مظاهر حب الأطفال لأنه سيستمر في البكاء والصراخ حتى يُستجاب طلبه، وفي ذلك مفسدة لأخلاقه ونحن بصدد تهذيب جيل جديد.

عليك أن تسيطر على رغباتك، كُن سيد عقلك، يقول بوذا "من يهزم رغباته أشجع ممن يهزم أعداءه..." ؛ وعبر هذا المبدأ فالكثيرون يؤمنون؛ أن أهمية المبادئ بأهمية نتائجها دون الإهتمام بمسلكها. وبسبب توصية العم نبيل بضرورة الإكثار من اللقاءات مع بهيجة بغية رفدها بمعنويات وتشجيعها لكيفية إستدراج عبدالله بأمان ليكون صريحا ويثقون به أن كلامه ينبع عن آلامه، إختارت المحاورة زميلتها ماجدة وشقيقها نافع وأيدها نبيل باعتبار الإثنين من ذوي الخبرة في تشكيلة صداقات نزيهة. أبدى الثنائي إستعداده للإنخراط بمجموعتها فكانت في منتهى السعادة، لأنها ستقود نخبة مميزة بخبرات راقية لإرغام عبدالله ليطرح معاناته قيد النقاش معتقدا ومتأكدا أنها ستكون في صالحه.

ماجدة: أختي بهيجة، ليست نصيحة أُقدمها لك لأن أدبك وأخلاقك الجميلة أرفع من محاولة البعض تشويهها، إتجاهك في الحياة لا يحتاج الى معاناة تفسيره بقدر حاجته الى صقله وتهذيبه، فمن المحزن أن يكون لنا إتجاه واضح وسليم ولا نستمتع به. الأزمات التي تلاحقنا على مدى حياتنا اليومية كثيرة، وما يهمنا منها، هي التي تكشف لنا معدن من هم حولنا، ولأجله علينا أن نتحلى بقدر ما من الفضيلة لأنها ستكشف لهم معدننا بسموِّ أخلاقنا.

نافع: الذي يحسدك يا أختي بهيجة إن لم يستطع الصعود الى مستواك طيبة وأخلاقا وجمالاً، يستميت بشتى السبل إغراءً أو تهديدا كي تنزلي أنتِ طوعا أو رغما عنكِ الى مستواه الوضيع، وإذا فشلت مساعيه يتمنى موتك لأنه يخاصمك، جمالك ما يؤخذ عليه أنه يسبب لك الحرج لإزدياد معجبيك، ونحن نعلم أنك تنبذين بعضهم لسلبياتهم في ممارسة الصداقة النظيفة وهي محل طموحك كشأن أغلبية الشباب ممن يستميتون من أجل جلسة أو حوار كحوار غالبية الشباب والشابات، الذي يهمنا ليس التوجس من كل الصداقات، إنما التجديد قد يكلفك العبء والمتاعب النفسية، ما أعنيه من مجمل حديثي يحوم حول عبدالله وشخصيته لا تزال طي الكتمان.

بهيجة: عزيزتي ماجدة وصديقي العزيز نافع، أنا فخورة بكم لأنني أحظى بصدق نواياكم تجاهي، وكأني أحس أن دموعكم إنحصرت لصفاء معدنكم لأنكم تعالجون هفواتي الشبابية الطائشة.

ماجدة: لسنا في مقام تثمين جهودك، فجهودك ثمينة فعلا والوالد مطمئنٌ بما تقومين به.

بهيجة: لا تفسروا صداقاتي بالسلبية عندما أجامل مشاكسا مغرورا، لأن الجرأة لإنقاذ المحتاج تتطلب قدرا من الشجاعة والإقدام، وفي الغالب المشاكس يتمتع بها، وهدفي هو أن أُجدد

صداقاتي كي أنبش ما تخزنه عقولهم كما يفعل العالم النفساني في تحليل نفسية مرضاه.

نافع: في كلامكِ شيء من الفلسفة يا بهيجة، حذاري عندما تستنجدين بالساقط المنحرف ليجنبك عملا طائشا! دعي دموعك تغسل وجنتيك لتفرزي بين العمل الصالح الأمين وبين مخالب الطامعين، لا تبخلي بجمالك على محبيكٍ الأمناء ولا تبذريه لمن لا يستحق ملاحقة ظلكِ.

كلامك جميل أخي نافع لو توفرت النيات الصادقة في حشد صداقة مأمونة العواقب، فلكي اؤمن سلامة موقفي لا بد من مواجهة العنف بعنف أشد، ولهذا السبب حصرا أُجيزُ لبعضهم التقرب لشم رائحتي.

ماجدة: إلى حدٍ ما أُشاطرك الرأي لكن بحذر، يكاد سموُّ تميزكم الأخلاقي ينعدم لدى غالبية المشاكسين وإن كان بينهم من يتحلى بخيط من نزاهة الضمير، لا أحد يضحي بنفسه لأيٍّ كان بسبب تعاطفه معه إن لم تُحتَسَب فاتورة تضحياته في آخر المطاف، ربما معدن المشبوه عبدالله يكون مقبولاً، لكن لحين التأكد من نقائه عبر لقاءات منسقة مهذبة سيكون لنا حديث آخر نبني على أساسه مباديء جديدة.

بهيجة: زخم عدد معجبيَّ يتم بإرادتي ولا أطرد من ساحتي أيَّ بائس وإن كان كهلاً، ولا أكره الزواج السياسي، ولا أقصد أن

يكون من اتزوجه قائدا سياسيا أو منتميا لكتلة ما، فأنا أنبذ السياسة من ألفها الى يائها وتعلمتها من سياسة قمع المتنافس وإن كان من صنفي، لكن لو تطلب الأمر أن أقترن بمن لا أميل اليه فلن أتأخر في ربط العلاقة، واعتبرها عملا نجيبا عندما أنقذ من يحتاج الى حقن شعوره بعلاج يهديء إنفعالاته.

إلا أن منحى علاقاتي مع عبدالله إستبعدوها من تحذيراتكم بأني أميل اليه بنسيج غرامي، أنا مجرد وسيلة تنفيذ بيد العم نبيل، حيثما يأمرني يجدني طائعة له، ولا أخطو وبالذات تجاه عبدالله إن لم أنَل موافقته، فكونوا أنتم عونا لي لإنجاح مهمتي وإن أثقلتني أن تزودوني بما يملي علي من آراء، وأنا فخورة بكم وبما ترونه سليما.

ماجدة: نثق أن لقاءاتك مع الشاب المعتوه هي مجدولة ضمن منهاجنا، وكلما تعمقت جذور حديثك معه سينال هو الإطمئنان ويتذوق طيبتها عندما يفرغ ما في جعبنه من خبايا وأسرار. في الغالب من يتمنى الشهرة عليه تسهيل الصعاب إن كان يجيدها وأنتِ لا زلتِ شابة لم تمارسي سوى بضعة دقائق مع هذا الشاب، وكذا وقت مع غيره، ما اعنيه أنك تتجاهلين أسرار العلاقة الزوجية بقدسياتها وخياناتها حتى بين الزيجات المتآلفة.

بهيجة: قطعا لا أتوق لعلاقة غرامية أتفرغ لها من أجل وقت أتمتع الإسترخاء على السرير مع الزوج، لكن لكي أخوض ضد

التيار لما فيه من لذة تفوق التأوه بين أحضان الزوجية، لستُ شهوانية لأرتمي بين أرجل الزوج حتى ينال مبتغاه ثم كقطعةٍ باليةٍ يبتعد عن رائحتها.

نافع: أخال أنك تؤمنين بفلسفة عندما تخافين أكثر لئلا يساء فهمكِ.

بهيجة: وهو كذلك، فأنا كلما ألجُ في مثل هذه النقاشات اتذكر بألم وأسى عميقين أن ما يحدث للإنسانية في جهات عدة من بلدي من تحطيم لِقِيَمِها عبر خلافات عقائدية بخسة، أتجرد من العلاقة الأسرية لأنطلق نحو فضاء شامل لأشاركهم عواطفهم.

نافع: صديقتي بهيجة.. لا تسرعي وصولا الى هدفك، لا زال الفجر يحمل لحظات إنبعاث أضوائه للبشر، ما مارستِ السياسة لتوقظي المظلوم من غفوته.

بهيجة: ومن منّا لا يتذكر معاناة أهلنا في بقاع شتى من بلدنا، أنسيتم عندما إكتسحته زمرة الجهالة تحت مسميات شتى وما أقترفته بحق ناسها من جرائم بربرية دون مراعاة العمر والجنس، ألم تُكتَسَح حرمة المقدسات، هل أنصفَنا المجتمع الدولى ما حل ببلدنا!

نافع: آنستي بهيجة.. لسنا بصدد شرح مفردات عن سياسة أتعبتنا، ما نقصده من حديثنا، كم من الوقت يلزمنا لو تشبثتِ

بما تسمينه بالعلاقة البريئة بينكم واكتفيت بمناصرتكِ للمعوزين المحتاجين لمعونتك، وأقولها عن عمق إيماني أنك ستنالين لقب القديسة في آخر مطافٍ من حياتك. ولأجله تطوعت بإخلاص القديسة تيريزا سابقا.

ماجدة: وهي نقطة جديرة بالإهتمام أدرجها في مذكراتك يا نافع قبل أن تنسى تفاصيلها.

نافع: تعرفينني جيدا يا أختي بأني أُدوِّن المذكرات التي تحدث داخل حيِّنا، وهذه الفقرة ستحتل عنوانا بارزا لموضوع في صفحات عدة منه تحت عنوان – زواج غير متكافيء – هل تقبلين نشره تحت هذا العنوان!

بهيجة: بكل تأكيد وأنا مسرورة وأحثك الإسراع في إنهائه، لكن لمَ تحت هكذا عنوان يحبط عزيمتي في مهمتي الإنسانية، أقترح تبويبه تحت عنوان (زواجٌ دون حب).

كان درسا تستحق عليه بهيجة إن إستوعبته ونفذته لاحقا شهادة تحولٍ من صبية مشحونة بالدلع والدلال الى شابة واعية تجيد فن التصرف مع كل شاب حسب نوعية العلاقة بينهما، وبهذا الاسلوب فقط ستتسارع كشف أوراق معجبيها، العملية ليست مسابقة لمن يستحوذ على قلبها، فقلبها لم يُعرض للبيع لمن يدفع بمغرياته لها، بل لمن يدخله رغما عنها وتُرَحِّب به.

(٩)

تُرى أين ارتَكَنَتْ جهود صوفيا وغريبة مع التي أسمت نفسها –إنتقام– ومن هو الذي ستنتقم منه، أهو زوجها إن كانت متزوجة، أم أسرتها تخلت عنها لعمل فاحش طائش إرتكبته، ربما للسطة الحكومية دور بإذلالها فباتت معتوهة، إنتشرت لهذه المهمة لجان المدينة لتتبعها، وفي كل يوم تجمع حولها معلومات جديرة بالإنتباه تتم مناقشتها بحضور العم نبيل وبهيجة ونافع، إرتأى العم نبيل أن يحصر اللقاء معها بين غريبة وصوفية وماجدة على أن يسجل الحوار معها على كاسيت دون علمها.

إذن العمل يحتاج الى خبرة إعلامية يلزم كادرها نافع بالحضور بعد الحصول على موافقة إنتقام، وحصل ما خُطِّطَ له، هيَّأ كل من نافع وماجدة مكان التجمع بعد نصب الأجهزة الضرورية المخفية لأرشفتها، توافدت مجموعة النساء وجلسن كل بحسب الموقع الذي إختاره نافع، إنتقام إندهشت بجمال ماجدة وقامة نافع الرشيقة، وركزت إنتباهها لحديثهم واستزاغته أنه مهذب.

إنتقام: إذن أنت إعلامي وبصفتك تمارس المهنة، هل أجريت لقاءً مع رعد المتعجرف!

نافع: الرعد يلتقي مع البرق في السماء وليس معي على الأرض، أم تقصدين شخصية معينة، لا أعرف أن عقدتُ لقاءً من شخص إسمه رعد، عرفت إسما كهذا قلَّما يأتمن أحد لصداقته، ويقال عنه كادر متميز لدى جماعة.

إنتقام: إنه كذلك، أتأسف لمعرفتي به يومَ أتاني للعيادة يستشيرني لأمر نسائيٍّ أخجل أنا أن أبوحه لذَكَرٍ غير المعني، لا أكره حشرة مثلما أكرهه.

نافع: إذن سادون حوله ملحوظة قد تفيدنا يوما ما.

إنتقام: الإعلامي يجب ان لا يكذب، هل تكره الكذب مثلي! فالذي يكذب ويعلم انه يكذب عندما تأتي ثمارها لصالحه، فهذه هي الآفة الكبرى تحطم المجتمع، دَوِّن وانشر ما سأقوله حرفا حرفا، أفهمت ماذا أعني.

نافع: سأُشَغِّلُ الطاقة الإحتياطية لقدراتي لخزن جديثك.

إنتقام: ليعلم الجميع أن حقي مهضومٌ وسُلِبَت كرامتي بحق الإنسانية وكانت من إهتماماتي وشأني .أحتاج الى هدوء رجاءً. كي تستأنسوا بذاكرتي عندما لا تخونني إستمعوا واستوعبوا وافهموا.

كانت تتكلم بكل جوارحا وأحاسيسها بعد أن نسيت أين هي الآن، توجه حديثها بتوزيع نظراتها لكل الحاضرين وبتركيز أكثر كانت تنسجم مع صورة ماجدة وإصغاء نافع .

نافع: شأنك من صلب إهتمامنا، وبكل ما تتحدثين لنا علمٌ به، ولهذا السبب نحن عطوفون عليكِ، فالذي نرجوه منك ألاّ تبخلي في مساعدتنا في مهمتنا وهي لصالحكِ حتما.

صوفية: أخت إنتقام ولو انه أسم منبوذ لكن رغبتك تفرض علينا أن نسميك به، لجنتنا في مجال بحث عن طبيب إخصائيّ نفسانيّ يكشف عن حالتك.

غريبة: وإن شئتِ بالطبيبة فرغبتك هي محط الإنتباه.

إنتابت إنتقام حالة كآبة وقلق عنيف عصرت رأسها بكفيها وكأنها تريد نزف ما يحويه، قطرات دموع إنسلخت من عينيها، فكان بكاء قلبها أشد حزنا وألماً من دموعها، ساد الصمت بين الجميع، يفسر كل فرد منهم لنفسه سبب إنفعالها، هل لا ترغب أحدا أن يطلع على حالها، هل تفتقر الى مبلغ العلاج لأن نفسيتها متوترة جدا تحتاج الى متابعة مكثفة.

ماجدة: لنبتعد قليلا عن هذا الجو المشحون وننطلق بحرية في سماء الغرام.

صوفية: زواج الفتاة هي محطة الراحة لها ولأسرتها.

غريبة: بعض الزيجات مع الأسف هي مبعث القلق والضياع عندما تفقد فرص التآلف بين الزوجين.

تذكرتْ لفقرات مقتطفة حديثها مع حبيبها وهي تبتسم قالت: الحب ليس كالزواج، ولا يأتي الزواج بأثـر من الحـب، بل الحـب

يأتي بعد الزواج وعندها فقط تسعد الأسرة.

نافع: إذا كان الزواج متكافئا عبر تفاهم الزوجين فالأولاد ينعمون بالسعادة تحت ظلال والديهم، وهي قمة السعادة.

إنتقام أحيانا تستمع الى حديثهم وأحيانا تستمتع بشرود ذهنها كأنها لم تسمع حواراتهم، هي غارقة في متاهات حياتها، وهم تائهون بماضيها وبدموعها، الحياة القاسية التى مرت على البلد لا تقاس بالعدد ولا بالحجم، كوادر البلد من إداريين وسياسيين تتبخر آثارهم لو قالوا للأسود رمادي، أو عطسوا أثناء حوار الإجتماع، كل مصيبة شملت الكل باستثناء القلة القليلة المحظوظة، ربما نالت حظها من مآسي وويلات فتشردت بين متاهات إختلقتها زمر متسلطة لتلتهي معها وتنفرد الحاشية بخزن الغنائم.

معظم المعلومات التي جُمِعت تشير أن إنتقام ما كانت إلا رمزا شامخا وأهينت، ذهولها المفاجيء لا يتاتى إعتباطا دون ماضٍ مؤلم سحيق تتذكره بين حين وآخر، على أفراد مجموعة التحقيق أن تتداول بحنكة لتتغلغل الى أعماق نفسيتها، ما يُحَيِّرُ الجماعة أنها إختارت هذا اللقب البغيض ليتناسق مع وضعها لتنتقم، ربما لو عُثِرَ على لغز أكثر تأزما من حالها لتمكن من ربطهما مع بعضها، ولِمَ لا تختار اللجنة المعتوه عبدالله ليتقاسما

بحثهما! جولة أُخرى من المناقشات معها ربما يستدلونَ منه معبرا لغاياتهم، لجأت صوفية الى أسلوب المباغتة.

صوفية: أختي إنتقام.. أدموعك ذكرتك بحادثة قوَّضت مركزك! لمنفعتك إقترحنا عرضك على طبيب خبير لا ليكشف لنا ما تتسترين تحته، بل لإنتشالك من محنتك.

غريبة: أتظنين أننا سنكسب نفعا جراء إهتمامنا بك، نعم سنكسب الدعم المعنوي من جهات تتولى رعايتك.

ماجدة: صديقتي.. انت مشردة دون رعاية من سند، دعينا نرعى شؤونك بإخلاص، وكل الذي نتمناه صدقك وجرأتك في حديثك معنا.

عادت إنتقام الى وعيها كما كانت وآثار الألم ما زالت تغطي بسمتها، جمعت طاقاتها لتكشف غلاف معدنها لكنها تقهقرت فانحدرت دموعها ثانية رغما عنها، تحدثت في سرها كيف كانت والى اين أوصلها الدهر القاسي، أبهذه القسوة يعوض الإحسان، في مهنتها لم تخن أحدا ولم تغَر من زميلة إن كانت أجمل أو أكفا خبرة منّها.

رغم أنها وأن تجاوزت الثلاثين من عمرها لكن الفخر زحف بها نحو مجد الوظيفة حتى تربعت أرقى شعبة في دائرتها، وكل الخبرة التي تمتلكها قدمتها للفقير كما قدمتها للغني، لم تميز بين رجل الدولة أو معارضيها، قَسَمُها الذي أدته نفذته نصا وروحا

لكل مهمة إنتُدبت لها، قلة من القرى النائية لم يكن لها زبون بين سكانها.

في حياتها الإجتماعية إقتنت الإحترام من الجميع ثم ممن عملوا معها من كلا الجنسين، يوسف حصرا كان الشاب الوسيم الذي مالت نحوه أحاسيسها، كان يشغل موقعا مهما كمسؤول لصيانة الأجهزة والمنشآت التابعة للدائرة وينتمي اليها الإثنان، ربطهما الحب الصادق دون أن يتجاوزا حدوده فخططا بجدٍ برنامجهما بدقة نحو مستقبل زاهٍ، وزميلها أكثر حرصا منّها على صيانة قدسية حبهم، بعض الزملاء باركوهم لأنهم كما قالوا أنكم نسخة شاذة من التآلف والوفاق، والبعض كأفخاخ نصبوا إجتهاداتهم للنيل منهما، كل منهم هي وحبيبها كانا يفديان الآخر من راحته ليسعد نصفه الآخر.

أسفا على الزمن وعلى من يستغلونه بمذلة، وصِيَتُها لكل بنت ألاّ تُصَدِّق ولا تثق بكل الصديقات فبعضهن كالجاني المتخفي يمشي خلف نعش ضحيته، من يسرق المال يحاسب بالمال ويعوض المسروق، لكن الذي يسرق القلب كيف يعوضه! من زميلة أحبَّتها جدا وكانت محطة ثقتها توشي بأخبار ملفقة حولها ولحبيبها، قد يهملها، لكن بإلحاح الزميلة لنقل بعض اللقاءات له قد يرتابه الشك، بدأت مرحلة الفحص والتدقيق بمراقبة تحركاتها

ضمن عملها وهي على إتصال مع جمهور الدائرة والزبائن يوميا، وقلما تتذكر أن زبونا معينا قد راجعها في يوم محدد.

فكتوريا ليست ولم تكن كأيّ إنسان إعتياديّ تصنف الأشياء حسب مصلحتها وما تنتفع منها لاحقا، هي منبع وطاقة لعمل كل خير لكل البشر، إهتبلت حد الجنون بعد أن كانت في عزِّ سعادتها حسب قولها، أن سعادة الإنسان تتوقف على ثقافته أكثر من إقتنائه كنوز المال، لا تجمع من المال بقدر ما كانت تملك من ذخائر في مخها. وهكذا نبذت ما كان هدف الطامعين الفاسدين.

ترك الفريق المحاور في جولات سابقة فرصة ترحال إنتقام في ميدان ذكرياتها وهم يراقبون إندماجها الوجداني عبر حركات يَدَيها وسرعة حركة جفنيها كأن ضياء الماضي يبهرها، سرعة إنتقال تفاعلاتها أجهدتها ثم بدأت تتراخى رويدا رويدا الى أن سكتت. مَن مِن المحاورين يمتلك ملكة الإنقضاض على الفرص كامتلاك ماجدة، منذ اللحظة الأولى في إلتهاء ضيفتهم مشردة مع خيالها، كانت ماجدة ترصدها لحظة بعد أُخرى، ومن ناحية ثانية كان نافع منشغلا لمراقبة التسجيل، ويدون في ذاكرته مفردات ليوثقها في دفتره.

وبما أن غريبة تربت تحت خيمة زوجها نبيل واقتبست من خصاله الشيء الكثير، لم لا تراوغ إنتقام وتتعامل معها كإحدى

بناتها والمكسب يعم الجميع! صوفية لا تقلُّ عنها دهاءً وهي المربية الأساسية لإبنتها اللعوبة بهيجة، وبهذا الثنائيُّ المتمرس ستتقدم نتائج جهود اللجنة تطورا نحو جلاء معضلة إنتقام.

صاغ العم نبيل خطة موزعة الأدوار؛ كدراما مسرحية متقنة الإخراج والآداء ؛ يتناوب الجميع دور تنفيذها والبطلة الحقيقية ما زالت خلف الستار، تكثفت وتكاثفت جهود الجميع كهجوم جيش مجهز لخوض معركة شرسة مع جيش فاشل لأنه لا يمتلك قيادة، مع أن إنتقام هي الوحيدة في الجهة المقابلة إلاّ أن التقرب لحدودها لا يزال موضع الحذر خشية إنزلاق توترها نحو الأسوأ، ماجدة تكاد تكون الأكثر إنسجاما بسبب الفارق القليل في أعمارهما، لكن صبرها وديمومتها في إنجرارها نحو هدفها ينقصها التهذيب، ولهذه المهمة تم إنتداب نافع لتميزه بالنفس الطويل والصبر الجميل في خوض النقاش المُشَوِّك، تشكلت هذه اللجنة المتعددة الخبرات وشملت إختصاصات متعددة متنوعة باستثناء المسائل الصحية التي توصف علميا بالدقيقة.

إجتمعت اللجنة للمرة الثانية باستثناء بهيجة، وأعضاؤهاعلى إتصال مباشر مع مرشدها، سيكون حدث هذا اليوم تاريخيا يجب إحراز تقدم مشهود ليسجل رمزا لسمو أخلاق هذه المدينة التي تستحق أنها مدينة فاضلة.

غريبة: ريثما يتم شملنا مع بهيجة وهي في طريقها الينا بصحبة إنتقام، وهي الطرف المهم في جدولة الحوارات، يتوجب على الجميع الإلتزام بالهدوء أثناء الحوار، وكلما إحتاجت ضيفتنا الى الكلام ندع المجال مفتوحا لها.

صوفية: ألتمس وربما أنتم شعرتم أنها بصدد كشف البعض عن أسرارها ولا تعرف كيف تسردها، أو تخشى سردها الآن حصراً.

نافع: توقعاتنا جميعا أنها ليست فتاةً اعتيادية، قد يكون الزمن أجحف بحقها طالت قدرتها، التدرج حسب أهمية المفردات تقودنا بسهولة نحو اجتهاداتنا.

صوفية: لو أسعفتنا الجهود في كشف ما يحويه عقل إنتقام من جمود، تستحق أن يصاغ منها نص لفلم يحصد جوائز ثمينة في الشهرة! هل حقا أن مدينتنا تنجز هكذا أعمالاً خارقة دون كوادر اكاديمية بحتة!

غريبة: سأطلب من نبيل أن ينتدب الى لجنتنا عضو من محققي الشرطة دون علم إنتقام.

نافع: إقتراح وجيه فعلاً، وخلاله نكون قد أبعدنا شكوك مجلس الأعيان أننا ننفرد في مهامنا هذه، أتابع بدقة خطوة إثر خطوةٍ مدى تفاعلها مع ما ننفذه، وأبلغ الوالد نتائجها بنص مصور توثيقي وبالأخص جهود بهيجة.

طال إنتظارهم قدوم البقية وهو يتحاورون، يجب أن يُنشر إنجازهم في أحسن الصحف العالمية والمحلية، تثمين العالم لهم يكفيهم فخرا ولا يحتاجون الى كنز المال، هكذا علمتهم تعليمات المدينة بفضل رعاية العم نبيل. دخل الثنائي المرحب بهم، إستقبلتهم المجموعة بابتسامات وقبلات، بدت إنتقام متعبة واتهمت بهيجة بمضايقتها عبر أسئلتها السخيفة حسب زعمها.

إنتقام: عجباً أرى الشابات يتكالبن حول حبيبي ليسلبوه وهو ملكي، ما هذه الأسئلة السخيفة يا صديقتي وقد أزعجتني بها طوال الطريق، كيف هو حبيبك.. هل يحبك.. هل هو وسيم..! عيب يا بهيجة عيب، سخافاتك محل إزعاجي، هل فهمت ماذا أقصد.

بهيجة: حبيبتي إنتقام.. لستُ بصدد سلب صديقكِ، الذي أتمناه فقط هو مساعدتك في صياغة سرد حواراته معك، الحلم يكاد يكون نصف الحقيقة يا حبيبتي.

تراجعت عن أسلوبها القاسي مع صديقتها واعتذرت أن إحتضنتها وقبلتها: آسفة حبيبتي، حياتيَ القاسية علَّمتني الخشونة، أعتذر.

ماذا عليها أن تسأل حتى تتجدد ذاكرتها، ومن هم الذين يقرون أنهم مطلوبون للصدفة وجودهم! من كلماتها الشهيرة التي قالتها ذات مرة عندما زارتها مريضة قروية حامل وبحضنها طفل

لا يتجاوز السنة، سألتها. كم طفلا أنجبت ولا زلت شابة، رغبة زوجك يستحق أن يسجل إسمه في المسابقات الدولية بالإنجاب.

: لي منه ثمانية فقط والتاسع سيأتي بعد شهر، بركة الرب يجب تقديرها ولا يجب أن نشاكسه على نعمه.

إنتقام: حيثما تجد خصوبة في التناسل تجد بلادة في العقل، لا بأس من ممارسة الجنس مع زوجك كلما اشتقتِ، لكن إقفلي باب الإنجاب نهائيا.

: يؤلمني جدا أن أحرم جنبنا من الولادة أحمله منه.

إنتقام: لا تأتيني ثانية وأنت حامل بعد هذه الولادة. صحتك وصحة اطفالك المولودين هي محط إهتماماتي أكثر مما تنتجين.

من الناس من يؤخذ بالتملق والمداهنة ظناُ منه أنها سبيل نحو التكبر والفخر، هل يعاقب العِلمُ العالِم بخيبة المُنَفِّذ في تطبيق نظريته، ليست الحرية حقا أن تتخلص من بعض عواطفك العمياء لتسترشد بقدرة الذكاء.

نصحت إنتقام بهيجة في كل مناسبة تذكر أمر زواجها من أبن عمها أنها ستخلق لهما مشاكل وراثية، ولأن الخطوبة على الأبواب وحرصا منها يجب إقناع الخطيبين بضرورة فسخ الخطوبة.

إنتقام: أحيانا تنتابني حالات صرعٍ وصحتي على ما يرام، وأحيانا أتيهُ بين فترة لزمن قاسٍ جَرَعتُه كلفتني حياتي ولا أدري

أين أنا الآن، أين فقدتُ أصحابي ومن أنتم، ولماذا تحيطونني برعايتكم، هل تحتاجونني لأشفيكم وأنا المصابة بداء النسيان، أين أنا مِنَ الذي كنتُ فيه من عزٍ ومركزٍ، خيرة مسؤولي البلد يرجون لمسة من يديَّ والهدايا ملء السيارات تحمل لي وأنا أرفضها، عندما أعود الى رشدي ألوم القانون لأنه يهمل أصحاب الكفاءات وأنا ضحيته.

بهيجة: أثناء قدومنا ونحن في الطريق تذكرت وصرَّحتني به أنها كانت مخطوبة أو على وشك ولا أوكل نفسي نيابة عنها طالما أنها تتذكر، أختي إنتقام، هل ندمت على خطوبتك من الذي أحبك وكنت تعرفينه قبل الخطوبة واقتنعتِ أنه الرجل المناسب.

إنتقام: كأننا كنا في عداد المخطوبين، كان رجلا ومن بعدِه سئمتُ نفسي، أتفهمونني جيدا! بدأت اليوم أتذكر من كان يحبني، أهو الآخر ضحية الموت الجماعي، أعذروني. لا أريد أن أتذكر أكثر، قلقي يتزايد عندما أتذكره... بعد صمت... ليتكم تُعينونَني بالعثور عليه، ربما هو يتذكر بقية أحلامي، رجاءً شاركوني، حديثكم كالمرهم قد يخفف متاعبي. لا أدري أية هموم تصعقني وأنا الشريدة بينكم. تسعفونني كأني زبونتكم وانتم تعالجونني.

صوفية: إذن لتكن رغبتكِ، فإن شئتِ سنتناول بعض العصائر لتهديء أعصابنا ونتسامر مع أحلام بهيجة وهي بانتظار دخولها مرحلة الخطوبة، ستكونين إحدي اللاتي تزين حفلتها رونقا وبهاءً.

إنتقام: علمت ممن ستتزوج وحذرتها وأحذرها مجددا أن زواجا كهذا لا يجب أن يتم لأسباب صحية. بهيجة.. أنصحك بإلغاء مراسيم الخطوبة قبل إستفحال أمرها، صمت... حياتي إنقلبت الى جحيم، النار تحرقني يا أصدقائي أنا منهكة منهارة، لا أحتاج الى العصائر، إنها سبب بلائي ومصائبي، الفراش كان خائنا معي وهو يقدم لي عصيرا كل يوم دون أن أُكَلِّفه بذلك، ولإحترامي له كنت أجامله لأشربه.

غريبة: عجبا..بهيجة هل أكملتم الفحوصات اللازمة!

إنتقام: لا يا جماعة الخير، تحذيري ليس بنقص الإستعداد لهما، بل بسبب قرابة الدم بينهما. اسألوني وكانت من مهماتي ونصائحي لل...صمتت...أيُّ عذاب أنا فيه وهل سينتهي! ومتى! القلة ممن أعاشرهم يفهمون كلامي.

نافع: يقال والقول لرجال الطب، ان للزواج بين الأقرباء محاذير حول سلامة النسل.

صوفية: لا تجتروا كلاما فارغا، الخطوبة ستعلن بعد أسبوع، وسترأسين يا أخت إنتقام قائمة المدعوين.

بهيجة: أنا قلقة من هذه الحالة، حالة واحدة شخصها الطبيب أن طفل جارنا معتوه وسببه زواج الأقارب.

إنتقام: وهذا الذي أردتُ أن أشرحه بالتفصيل... تسرح في الخيال.. أين أنت من ذاك المكتب يا فك..عذرا..يا إنتقام ..الفراش والمريض والمهندس..قلت المهندس..! يا له من شاب وسيم كم كنتَ محبوباً يا يو... تؤرقني ذكراه.

سادت الدهشة والإستغراب أفراد اللجنة أن إنتقام تصف نفسها دون إدراك منها أنها كانت المعنية يوما ما بأمر زواج الأقرباء، هل يعتبرونه مدخلاً جيداَ وصولا الى حقيقة إنتقام ولا نستبعد أنها إنتحلت بإسمٍ مستعار أيضا، من هم الرجال المهتمون بالنسل وأمراضه دون رجال الصحة أولاً ثم رجال العلم في علوم الأحياء المجهرية والمختبرات. كل المعلومات العلمية بهذا الشأن تؤكد الحذر من تزاوج الأقرباء، وعاقبه تقع على المولود وعلى نفسية الوالدين.

(١٠)

جولة المختبرات تقودها عبقرية وذكاء نافع عندما يُكَلَّفُ بمهمة تقصي الحقيقة، عبر تجواله في إحدى المختبرات المجهرية، بحجة التوثيق والتحقيق مع كوادرها ضمن جولة إعلامية خطط لها مهندس التحقيقات نبيل وجاذبية بهيجة في تجاوب من يشخصونه، قَبِلَ مُرَحِّبا إقتراح اللجنة وتهيأ بصحبة رفيقته لتنفيذ المهمة.

في أيّةِ مختبرات يجب أن يحققوا، الأهلية أم الحكومية، وفي أول خطوة بعد دخولهم الى مختبر ومنه الى مختبر آخر. إستقر بهم المطاف عند مختبر، يبدو أن البعض من المراجعين يلحون باستفساراتهم عن شخصية محددة كانت تتولى مهمة الفحوصات ونتائجها كانت مثار الدهشة بسبب دقتها، أن هذا القسم كان تحت إشراف طبيبة بارعة الذكاء غابت عنه ولا يُعرَف مصيرها الآن، هل إنتقلت الى شعبة أخرى أم الى مستشفى أرقى أم هاجرت كشأن غالبية الكوادر الطبية! لماذا لا تفتح مختبرا خاصا لها إن كانت موجودة هنا، ستحصد غالبية المراجعين، قد يكون للجانب الأمني مصدر تخلت عن فكرة قدمها لها رجل اعمال ثري يشاركها الأرباح لو وافقت على مقترحه لفتح مختبر خاص يحمل إسمها.

المختبر الذي طالت الإستفسارات حوله حاول الثنائي الدخول في الأخذ والرد في النقاشات بين بعض منتسبيه، أفهمهم مسؤوله أن ما يحاولون من أجله قد جسدته الدكتورة فكتوريا عبر مريضاتها.

إشتاق فريق البحث أن يلتقي بالطبيبة المذكورة لتزودهم بشهادتها، أُعْلِموا أنهم يجهلون محل عملها، وأغلب الآراء أنها هاجرت بسبب محاصرتها من متنفذين يسيطرون على إدارة المستشفى، هذه الأمنية حسبوها من أفضليات توقعاتهم إن لم تتعدَّ أمن سلامتها! بحثوا في خصوصيات المختبر أنها إنتقلت الى قسم آخر في ذات المستشفى، وفي أرشيفه صور لبعض المشرفين والمشرفات ممن كان لهم دور بارع في إدارته. وكحب التطفل مررت بهيجة عينيها على كل الصور، فاستوقفتها آخر صورة لشابة جميلة بزي طبيبة وبجانبها رجل وامرأة. بعد التدقيق والنظر الثاقب، شكَّكت أن صاحبة الصورة ربما رأتها وقد تعرفها. أحد العاملين فيها شاركهم تطفلهم وأفهمهم أن لصاحبة الصورة فضل كبير على تطور هذا القسم.

: لا أتجاسر أن أقول رحمها الله لأن مصيرها مجهول؛ فلو كانت على قيد الحياة وهو أمل جميع العاملين هنا؛ يرغبون عودتها لمكانها الطبيعي، إنها الدكتورة فكتوريا صاحبة شهادتين علميتين بارزتين، كطبيبة نسائية مختصة وكخبيرة في علم

البكتريولوجيا بشهادة رفيعة من أرقى جامعة أوربية رصينة بمركزها العالمي.

فريق البحث وثق جهودها، مساءً تقود فريق عملها في عيادتها ككل ليلة مزدحمة أبداً بنساءٍ مشهورات إجتماعيا، بل أن أغلبية الطبيبات وزوجات الأطباء كنَّ زبائنها، ومعظم زوجات البرلمانيين والوجهاء كن يراجعنها. ومنذ الصباح الباكر تتواجد في المختبر قبل قدوم رتل العاملين، تعرضت لأكثر من مرة ألى إهانة واعتداء جسدي من قبل أناس إن كانوا جهلاء أو مأجورين لهذه المهمة، رفضت تعيين حراس شخصيين سريين لها أثناء تواجدها في المستشفى لأن الداء والجهل لا يُعالجان قطعاً بالحشود العسكرية.

زار الثنائي الموفد شعبة الطواريء حسب معلومة إلتقطها ووثقها نافع بالتفصيل لكل معلومة زوده بها موظفو المختبر والطواريء، ثم نحو غرفة المدير، وفي كل نقلة من مكان الى آخر يدون معلومة جديدة وكان فخورا بما اقتنى من وثائق قيمة ولا يرفعها لأية جهة ريثما يحين أوانها، وكذلك طمأنته بهيجة بحفظِ السر. مدير المستشفى كشف دون عمد بعض أسرار الطبيبة التي كانت تشغل إدارتها بحرصها وأمانتها وخبرتها معا. قيمة المعلومات التي حصل عليها الوفد من أكثر من مصدر تفوق مقدار ما جمعته اللجان المتفاوضة مع إنتقام ويوسف.

المدير: كانت رزينة جدا، وفية ومخلصة في مهنتها جدا، نزيهة وبخبرتها الجليلة جدا، خدمت الفقير قبل الغني، لكن البعض لا يستأنس للإخلاص؛ كحالنا اليوم؛ ننتظر يومَ يُنصَف المخلص ويُنبذُ اللصُّ. بعض الأحلام قد تتحقق.

الرجل الذي تمرس في ملف التحقيقات الجنائية أكثر من عقدين ثم أُزيح رغما عنه، تولى قيادة الإجتماع الذي ضم المختارين من أبرز وأجرأ نشطاء المدينة الفاضلة، أمثال بهيجة ونافع وماجدة، وعن الجانب الآخر من أعضاء المجلس حضر كل من يونان وشامل وأنور وشوقي ولويس، يبدو أن أفكار الجانبين عن سبب الدعوة قد غالبها تفسيرات متباينة الأهداف، الضيف كان في جعبته الكثير من حجج الإستفسارات التي كانت الإجابة عليها شديدة الإلحاح بغية تقصي ما تحويه أنشطة الجانب الآخر التي لا تستند لمسوغ قانوني أو شرعي.

قبل بدء الإجتماع إنشطرت أفكار المجلس لأكثر من رأي، هل يتوجب بما يحملون من شرعية قانونية أن يفرضوا على الطرف الآخر ليكف عن بعض أنشطتهم التي ليست من صلاحياتهم، كالإستجوابات التي يؤديها مع الغرباء من زوار المدينة.

تخلى صاحب المقهى ذلك اليوم عن دخول رواده لأن الإجتماع يُعقد فيه وليس لديهم مكان آخر أوسع منه، المقاعد

البلاستيكية نصف مستهلكة، أجهزة إعداد الشاي والقهوة غطى السواد معدنها بالكامل، وأقداح التقديم ربما مضى على عهد صنعها زمنا لا يتذكره مراهق.

بادر شامل قبل بدء الإجتماع بالقول.

: أبمثل هذا المكان تستضيفون مجلسا إنتخبه شعب وأنتم تخططون تقديم خدماتكم له!

بهيجة: سوء المضيف أو جودته لا يغيران فحوى الكلام!

شوقي: زملائي قبل أن تجلسوا، يا صاحب المقهى نظف المقاعد من الأتربة والأوساخ، زوجتي ستوبخني عندما تتلطخ ملابسي بالغبار. ربما تتهمني اني مارست الحب مع عاهرة في بيت ريفيٍّ بائس.

نبيل: أن تتلطخ ثيابك أفضل من قذارة المخ. إن سحبتَ كلامك فهذا مؤشر جيد، لنبدا الحوار الجاد، وبخلافه يمكنك الوقوف على قدميك أو الإنصراف إن شئت، وهي مناسبة حسنة نقترح على مجلسكم الموقر أن تشيدوا لنا مقراً لبضعة أمتار لا أكثر.

يونان: ليكن حوارنا حصرا للذي إجتمعنا لأجله، أما بخصوص المقر سأتحدث مع المختصين لقبول الفكرة.

تصدر نافع مستعدا لتوثيق بنود الإجتماع كونه الإعلامي الوحيد الذي يجيد أرشفته. رحب نبيل بداية حديثه بالوفد الضيف قائلا.

: يسعدنا ونحن نلتقي لخدمة البلدة وطيبة ناسها، لكن ما يقلقني أن إجتماعنا هنا في هذا المكان البائس، كنا مرغمين لعدم توقر أفضل منه في الوقت الحاضر، ربما في الإجتماعات اللاحقة سيتوفر لنا المكتب الأرقى كما نوه به الأخ يونان، نجتمع لا لكي نتحاسب سلبيا بعضنا للبعض، إتجاهنا في عملنا محدد وليس مطلقا، وبه نستمتع، قد يكون مشروعنا لدى البعض مكروها لأسباب هم يصفونها بأنها خارج نطاق مسؤولياتنا.

شامل: من هي الجهة الرسمية التي تدعمكم، أهي حكومية أم خيرية؟ هل هي جهات عربية أم اجنبية إستأذنت بهيجة لتتحدث قالت.

: الذي يدعمنا وكلنا شاكرين له على مواصلتنا به هو إخلاصنا في تنفيذ العمل تطوعاً.

شيلان: وهذا الذي أكسبكم شهرة واسعة ويثمن جهودكم.

ماجدة: كدُّ العمل لا يتعبنا، ما نتألم جراءه هو تشكيك البعض أننا نستغل زوارنا لمآرب خاصة.

شامل: إذا كان الأمر كما تتأكدون أن جهودكم هي خدمة طوعية وهي مثار شَكِّنا فعلاً، المجلس قد ينظر بعين الشك والريبة عندما تتدخل منظمات أجنبية ضمن عملكم.

نبيل: لسنا جهة رسمية لتستفيد منظمات خارجية من مشاريعنا، لا نستبعد دعمها لجهودنا، لكن بصريح العبارة نقول،

حاولت بعض الجهات الخارجية بالتنسيق مع مثيلاتها في الداخل أن نتعاون معها وفق شروطها، لكن إرادة الجميع إنحازت الى نبذ هكذا تعاون. بل إقترحنا عليهم إن كانوا جادين في التعاون معنا، أن يمدوا يد التعاون دون شروط.

يونان: هل لوزارة الهجرة والمؤنفلين علم بنشاطكم، كما تعلمون أن أعدادهم بتزايد مستمر يحتاج لمتابعة مركزة.

نبيل: لسنا بديلا لأية جهة، ولم يكلفنا أحد بما نؤديه، أقولها وبتكرار ممل، عملنا من ألفه والى يائه هو مجاني التخطيط والأداء، لكن لا نمتنع قبول دعم ماديٍ أو معنويٍ شريطة أن يتم عبر التفاهم لصالح العمل الخيري، ولم نستلم لحد الآن أيّ مبلغ لأصغر عملة نقدية لبلدنا، لامن الداخل ولا من الخارج.

لويس: لو تعاملتم بشفافية مع منظمات خيرية أجنبية، لا أعتقد انها ستتملص من هدفها وهو هدفكم أيضاً.

بهيجة: فكرة جيدة لو تم تنفيذها بتوصية من مجلسكم، نحن حذرون لطلب أيّ مبلغ لئلا يصاغ بسوء نية في صرفياته، لجان مدينتا يتوسلون لتوفير نيات صافية لدعم مشاريعنا.

نبيل: أشكرك آنسة بهيجة.. وتثمينا لرأيها أقترح أن يتولى مجلسكم الموقر على صرف أيّ مبلغ يردنا عبر منافذكم، سنتولى الجانب التخطيطي والتنفيذي وأنتم المشرفون على تكاليفه، وهذا دليل على حسن تعاملنا مع الفساد.

لمّا إقترن المهندس الوسيم يوسف حبه مع الدكتورة فكتوريا، بات الإثنان محط الغيرة والحسد، إستغل المتربصون كل طاقاتهم لإفشال بل لتحوير مسار حبهما نحو الحقد والكراهية، مهمة لا يتستر تحتها إلا المراوغ المنافق وممن تربطهم علاقات مع الحبيبين، وهكذا وبعملية خبيثة محنكة شُخِصَّ رجل وامرأة من منتسبي المستشفى، وفي الحال بدأ التنفيذ، زار الرجل يوسفَ في مكتبه وبدون مقدمات وتكحيل.

الرجل: صديقي يوسف.. ولأنك من أعزِّ أصدقائي يهمني ألا يسيء أحدٌ لسمعتك وأنت المشخص في المستشفى بنزاهتك واستقامة مسلكك.

يوسف: أشكرك على إطرائك، وهو ما يدل على رقي أخلاقك تجاهي.

الرجل: قد تصدم لحالة أكشفها وتخصك، قُلها دون خجل.

حذره أن حبيبته قد تخونه إستنادا الى مشهد يثير الشبهات، إكتفي الرجل بهذه المقدمة السريعة دون أن يحرك يوسف رمشة عين، بعد يومين عاود الرجل في محاولة أخرى وسلم ليوسف صورة تجمع فكتوريا مع شخص مقنع الوجه، ويوسف واثق أن حبيبته لا تلجأ الى هكذا أسلوب هابط، تكررت لقاءات الصديقين؛ إن جاز التعبير؛ وعند كل لقاء يبرز الرجل أدلة تورط الدكتورة بعلاقة مع رجل مشبوه.

الرجل: صورة من هذه يا صديقي!

يوسف: وهل يحتاج قمر مكتملٌ إشارة الإستدلال!

الرجل: والذي إنحنى على مكتبها، هل ليشرح لها عملية الولادة القيصرية برايك!

يوسف: أنت بارع في الدبلجة والمونتاج يا خبيث، تحور في الصوت والصورة معا.

الرجل: أنت حرٌّ بما تقتنع، والواجب يفرض عليَّ أن أحذرك فقط لأننا أصدقاء، لم أقبض ثمن إخلاصي لمنفعتك، بل هو خير تمنيته لك.

يوسف: لا أشكرك على هذا الواجب الخبيث.

الرجل: هل عرفت من إنحنى فوق رأسها وهي تبتسم له.

يوسف: إخزنه في فكرك العفن ريثما يحين أوان كشفه لك، الذي تعرفه في الصورة ألا تعرفه من هو في الحقيقة!

الرجل: ستندم على تحفظك أسرار بمن تجتمع الدكتورة.

يوسف: أنت أغبى من مخبول عقليا، لاحظ يا غبي نقش قميصه، قميص من هي!

الرجل: المعمل لا ينتج من قماش معين قميصا واحدا صحيح أنه شبيه قميصك.

يوسف: وهل تقاطيع وجهه حورها معالج لتبدو غريبة عن إدراكك. محلات التجميل، أو بالأحرى التحويل، تستقبل يوميا

العشرات لتغيير ملامحهم، اتريد أن تبدو كأجمل شابة أو كأقبح وجه يخشاه إبنك.

الرجل: أنت حرٌّ بما تعتقد، الذي عليَّ أديته ولك حرية التفكير يا صديقي.

تحركت جهود أخرى على جبهة فكتوريا وهي في مكتبها داخل المختبر، دخلت عليها إحدى صديقاتها وزميلة لها في المهنة، كانت فكتوريا في إجتماع في مكتبها مع رعد ورفيق له مجهول لدى الطبيبة، الحوار إستمر بين الإثنين حول قبول الدكتورة مقترحا قدمه لها رعد فيما سبق. أخذ الجدال منحى الخشونة من جانب رعد.

رعد: لا أعتقد أن جهودك ستنجح، شركتنا ومنذ تأسيسها تحظى بالأولوية بتعاملها مع وزارة الصحة، والنموذج المطلوب سيصل عن قريب، المطلوب منكِ أن تستلميه عسى أن يكون عاطلاً.

فكتوريا: أراك تتحدث من مركز رفيع وفرضي يا سيد رعد، هل انت جاد بما قلته وعليَّ تنفيذه مرغمةً!

رعد: بكل تأكيد، قلتها وأقولها أن تستلمي الجهاز بكل عيوبه وهو أمر فوق إرادة مديركِ.

فكتوريا: ثق أن الجهاز سوف لن يدخل القسم الذي تحت رئاستي، خذه الى أي قسم آخر، ربما يشكرون جهودك.

خرج رعد دون توديع.

فكتوريا: من الضروري أن تستفسر الوزارة من جهات خبيرة عندما تستورد جهازا بكفاءة عالية، وأنت شاهدة يا صديقتي، سوف أترك مسؤولية الشعبة لو فُرِضَ علي إستلام هذا الجهاز المشكوك بجاهزيته.

بعد المداولة حول شؤون المختبر عرجت الطبيبة الزائرة منتهى زميلتها نحو حب الحبيب وقرب يوم النيشان.

الصديقة: لا تستعجلي لإعلان موعد الخطوبة.

فكتوريا: حتما ستكون بعد عودتك من سفرك المبارك، متى تسافرين، أو بالأحرى متى تعودين؟

الصديقة: بسبب إلتزاماتي الوظيفية هنا إرتأيت تأجيل سفري لحين آخر.

فكتوريا: إذن ما العبرة بنصيحتك كي يتأجل موعد فرحنا! هل صحة الوالد مقلقة تخشين قرب رحيله!

الصديقة: لا هذا ولا ذاك، فقط ليتضح لكِ مسلك الحبيب، هل هو ثابت وعازم على قراره!!

تعجبت الدكتورة من طرح زميلتها واستفسرت عما لديها من معلومات، ومجمل قول صديقتها منتهى أنها نصيحة وربما ستكون عاقبة تجاهلها كارثة أليمة بين الزوجين. إستهزأت فكتوريا من حديثها بأسلوب سخريٍّ.

فكتوريا: ألهذه الدرجة أنا مغشوشة بحبه ويبدو لي كحب قيس لليلى، أملي أن تبدين أكثر صراحة معي، هل حقا يميل بحبه للخيانة.

أخرجت منتهى من حقيبتها صورة ليوسف ومعه فتاة وعرضتها لفكتوريا .

منتهى: من التي في الصورة يا صديقتي، أتشبهكِ!

هزت فكتوريا رأسها وتطلب صديقتها إكمال ما لديها من معلومات خطيرة بشأن يوسف.

منتهى: أُكرر سؤالي، اتعرفين الفتاة في الصورة، تُرى صورة من هي يا صديقتي!

فكتوريا: الملامح غير واضحة، هل هي صورتكِ؟

منتهى: يا فكتوريا يا عزيزتي، إن تجهلين من تكون فهذه مصيبة، وإن شخصتِها فالمصيبة أكبر!

فكتوريا: يا سفيهة وساقطة، هل التي معه هي التي الآن معي لتسرق حبيبي!؟

منتهى: مهلا مهلاً حبيبتي فكتوريا، التي معه أجمل بكثير من جمالي، لَما ترددتُ الميل لها لو كنتُ رجلاً، كيف لا يحبها وهي نور من جمال! لا تيأسي، شباب المستشفى قاطبة يتمنون التحدث معك ولو بعبارات قليلة، لديَّ من الزملاء كما لديك أنتِ، قليل من الصبر ستنهال عليكِ طلبات الصداقة والغرام.

فكتوريا: –باسلوب ساخر– من برأيك الرجل المناسب الذي تختارينه لي وهو يرضى، هل حديثك معي هو توصية منه عسى تنالين إبلاغه بركات محاولاتك.

الزميلة: تعرفينه وقد عرض عليك الفكرة ورفضته، ولأنه أرمل، لا يعني أنه فقدَ صلاحية زواجه ثانية.

فكتوريا: جهودك تجاهي لا أثمنها، ترى كم ثَمَنُها لديه لو بشَّرتِه بما بذلتِ من جهود؛ أحسبها رخيصة مهما دفع لأجلها، بلغيه تحياتي القبيحة إن إستطعتِ، وقولي له حرفيا نقلاً عن لساني"جوز يا عجوز".

منتهى: كنتُ أتوقع أن يكون ردك بهذه القسوة، قدمته لك كمقدمةٍ لأطرح بديله دون أن يكلفني، لكن نصيحتي أن تُفكري جيدا، ليس لأنك مركز إهتمام خيرة شباب المستشفى، بل أن المدعو يوسف ليس من مركزك، لو صُنِّفَ لي لقب العنوسة مدى عمري لا أطمح أن اتزوج منه مهما كان نزيها.

فكتوريا: كم أنت مظلوم يا يوسف! لكن لا تيأس طالما هناك من يعشق إخلاصك في كل المجالات المهنية والعاطفية، أرجو يا زميلتي إن كان لديك مزيد من الإثباتات حوله، لديَّ أكثر من أذنين لأفرز كل مفردات أحاديثك!

الزميلة: الآن بدأتِ تَحسّينَ بخطورة إنخداعك بحبه، كم هم الشباب مثله يحبون أكثر من فتاة ومن نفس المحيط في آنٍ

واحد، الهذه العلاقة توصف بحب صادق!

مكتب فكتوريا يعج بالمستمسكات، منها مهنية تخص واجبها. ومنها وثائق خاصة، قصاصات ورق عليها عبارات لا يدركها إلا من خطها، صور لأجهزة مختبرية، صور شخصية لأفراد وأشخاص تمنوا أن تبقى صداقتها معهم محط التقدير، قواميس طبية عدة تخص التحليلات المرضية الخاصة بزواج الأقارب، عمَّ إستياؤها من إصرار زميلتها أن تنسى وتنبذ علاقتها بيوسف الخائن؛ كما لقبته الدكتورة منتهى.

منتهى: قبل أن أغادر مكتبك أملي الا تغادر وصيتي محيط عقلك، لا تعتقدي أن من أحبك يوما ونبذته أن ينساك طالما أنت طليقة دون زوج، أكاد أجزم أنه سيتخلى عن الزواج بعد زواجك بغيره، إن لم يكن حبا به، ليكن زواجك منه عطفا عليه مثلما تعطف الأم على ولدها، والبنت قاطبة منبع العطف والحنان، ستنالين خير البركات لو أصغيتِ لحديثي أن الزواج مما تسميه؛ الحبيب؛ سيجلب لك أولا متاعب خيانته، وللذى أحبك عن صدق ووفاء ستبقى صورتك في خياله مدى حياته وإن تزوج غيرك.!

أخرجت فكتوريا صورة من مكتبها وقلَّبَتها على ظهرها، وهي تراقب تصرفات منتهى، قرابة نصف دقيقة ساد الصمتُ بينهما، فكتوريا بين الحين والحين تجيز لعينها رخصة التمتع بجمال الصورة مبتسمة، تمنت منتهى أن تقلب الصورة لكن فكتوريا

نصحتها التريث ريثما تكتمل عندها، أن منتهى قادرة على تحمل صعقها عندما تشرح فكتوريا فحوى الصورة.

منتهى: أشتهي فنجان قهوة لأريح أعصابي، الجهد الذي بذلته معك طيلة نصف ساعة بين الأخذ والرد، لا يعادل ربع الزمن الذي خبأتِ عني دلالة هذه الصورة، هل هي لعفريت قبيح أفزع لمنظره البشع!

فكتوريا: صحيح ستفزعين، لكنها ليست عفريتا حقيقيا، ستفزعين من سذاجتك وممن لطخ الصورة التي معك، بربك أُحَلِّفكِ، هل أنت صادقة أنك تتجاهلين من هم أفراد الصورة، أم أنك واثقة من شخصياتها!

منتهى: يا فكتوريا.. عندما أقدم لكِ دليل الخيانة، أنت حرة بما تعتقدين، وتصرفي كما تشائين، إن شئتِ نقفل الموضوع حفاظا على صداقتنا، والرأيُ رأيكِ.

فكتوريا: قبل أن نقفل الملف، ألا تعتقدين أن ميزان علاقتنا سيرجح! أشكرك إن كنتِ حريصة على مصالحي، لكني أبغض بعض آرائك تجاه يوسف، إن لم يكن يوسف حبيبي، فهو موظف مخلص وحريص على واجبه، وأحترمه لأجله. المهندس يوسف مثال الخلق وكفى.

قلبت الصورة على وجهها، منتهى تفحصها وتقارنها بالنسخة التي بحوزتها، إختلاف بين الوجوه والملابس وتطابق كليٌّ في

خلفية الصورتين، إكسسوارات الحائط ذاتها، معروضات المنضدة لا زالت شاخصة على مكتب الدكتورة، ساعة يدها هي هي، شكل عقدة رباط الشخص هي ذاتها، وكل ما يحويه المنظر ينطبق على الصورتين، إذن أين وجه الخلاف لتثبت منتهى أن يوسف يخون حبيبته.

فكتوريا: زميلتي منتهى.. إن كشفت عن حقيقة من زور الصورة الأصلية، فأنتِ ستبقين من أخلص صديقاتي، وبخلافه أعتبر أن علاقتنا منذ اليوم في عداد الرفض قطعاً.

منتهى: –بخجل– أعتذر عزيزتي فكتوريا عن ذكر اسم الشخص، لكن وعدي لك أنا من ستحاسبه أشد حساب، أكرر إعتذاري، ولأجل براءة ذمتي مما فعلته، أنت وحبيبك يوسف مدعوان لدي وعليك إختيار المكان. للمرة الثالثة أعتذر وآسفة على حماقتي.

غابت فكتوريا في متاهات النصائح تقلب صفحات حبهما ولم تعثر على دليل شعرة في خيانة حبيبها، كشأن الرجل مع يوسف بالغت زميلة جديدة جهودها في بث الشك بين حب الحبيبين.

عواطف: يوسف يخطط لجولة حب جديد مع فتاة جديدة يا صديقتي، إن غاب عنك هذا الخبر، فالخبر اليقين عند زميلتك إن رغبتِ معرفته.

فكتوريا: لستُ متفرغة لسماع الهذيان رجاءً.

عواطف: ألتمس من حديثك أن خيانة الحبيب لا تهمك! وقبل أن تردّي على الخبر المفزع، اليك هذه الصورة وتمعني بها جيدا قبل أن أخطفها من يديكِ خشية تمزيقها.

فكتوريا وهي صادقة من حب يوسف، فلو تجمعت ألف صورة في خيال الحاسدين، لا تتوقع أنه يخون، إبتسمت للصورة ووضعتها على قلبها قائلة.

: أشكرك... لأن الذي فبرك الصورة ما كان مجتهدا في تغيير معالم الصورة، أقراطها أليست ذات التي في أذنيَّ، لون عينيها وحواجبها ألا تطابق بما يزينه وجهي، الذي نسخ صورتي بهذه الوضعية هو مبرمِجٌ بارع، بلغيه تحياتي إنه قد فشل فيما أقدم عليه فأوقعك، أو ربما صرتِ ضحية جهالته. تمعني جيدا في تاريخ إلتقاط الصورتين والساعة والدقيقة.

لمّا تكثفت نصائحها طلبت لتبرز أدلتها، لكن الدكتورة دحَّضَتها لشدة تعلق حبيبها بحبه لها، لا زالت الصديقة وفي كل محاولة تقدم دليلا لا يبرر الخيانة، أسمعتها حواره مع فتاته عن حبه لها مع لقطة سريعة لصورة تكاد تكون مشوهة المعالم عبر هاتفها النقال وفكتوريا تسمع الحوار.

فكتوريا: الصورة حقيقية مع بعض التلاعب من قبل المخرج، ولقلة معلوماته في الفبركة أفسد جهوده في تغير نبرات صوتي وصورتي معا. أنصحك لمحاولة ثانية ادَقُّ تلاعبا!

لجأت فكتوريا الى إسماع عواطف التسجيل الكامل للحوار الذي جرى بينها وبين حبيبها، وهو ذات التسجيل الذي بثته عواطف. إذن لابد اللجوء للحيطة والحذر، وكل من الحبيبين يَجسّان للآخر أن الشك بات يسري في خيال كل منهم، وعلى أثر ذلك ومن أجل الوقوف الى معلومات المتملقين تزاور الإثنان مكتب الآخر دون موعد سابق محدد، يوسف يعتب فكتوريا أنها ملتهية ولم تعد تبحث عن موعد الخطبة، والدكتورة بدورها تذكره أن زياراته لمكتبها تباعدت فتراتها، ويعني ما يعنيه ؛ الإهمال، تبادلُ الشكوك قَوَّضَ الثقة بين الطرفين وبات إنعزالهما وشيك التنفيذ، كل يمهل طرفه الآخر بتصحيح مساره نحو الآخر. بعد توالي الأيام والليالي توترت علاقتهما ومالت نحو الفتور، ليس بسبب الصور، والأخبار المفبركة، لكنهما يتأسفان لحالتهما معاً نتيجة جهد يتجاهلون مصدره الآن.

نقل الطرفان كل للآخر محاولات من هم بصفة– الأصدقاء– عن شكوك مريبة بعلاقتهما كل منهما يغيره. فكتوريا خابرته أنها في طريقها الى مكتبه ومعه زائرة تجهل من تكون. كانت الزائرة أثناء دخول فكتوريا تجلس قبالته كاشفة الصدر بوضوح متكئة على مكتبه ليبرز مزيدا عن مفاتنها، تقهقرت فكتوريا لمّا شاهدت المنظر وخرجت دون نطق حرف، فسر يوسف الأمر إحترام حبيبته لخصوصياته. ناداها لتدخل لكنها إعتذرت بسبب إنشغاله

مع زائرته، خرج اليها وهي في طريق إنصرافها ماسكا ذراعها ودخلا سوية يبتسمان، قدم يوسف ضيفته لحبيبته أنها ميسون إبنة جاره وزميلة دراسته في كلية الهندسة أيام زمان.

فكتوريا: أهلا بالأخت ميسون.. العتب عليك يا يوسف أنك أهملت بحقنا ولم تقم بواجبك بتعارفنا لبعضنا، مرحبا بك يا عزيزتي ميسون.

ميسون بادلتها الإحترام بالمقابل وهي الأخرى ألقت اللوم عليه بأنه يهمل إلتزاماته تجاه حبيبته.

ميسون: لكِ كل الحق بمحاسبته يا دكتورة، زرته مرات عديدة بعمل مهني ومرات لإعادة ذكريات الكلية، كانت أطيب أوقاتي، وخاصة السفرات العلمية بقيادة الدكتور رشدي، أتتذكر يا حبيبي يوسف عندما عانقني الدكتور وقبل جبيني.!

يوسف: كلنا تفاجأنا وبالذات أنا، كنتُ أحترق حسدا لقبلته، بل كنتُ أتمنى أن أكون انا بديله.

ميسون: شعور طيب يا حبيبي أشكرك عليه.

حاولت فكتوريا الإنصراف ليتم للطرفين العيش في أحلام ذكريات ربما لقبلات وعناق شديد. توسل كل من ميسون ويوسف أن تصحبهما الى مطعم لإحياء ذكرى مرور عشر سنوات لتخرجهما. توسط يوسف بين الفتاتين يتبختر بجمالهما وشهادتهما بعد أن نالت ميسون الدكتوراه في مجال تقنية الطاقة

البديلة كصديقة للبيئة. حدث ما لم يكن في الحسبان أن ميسون تجاوزت عرف الصداقة وبحضور حبيبته وهي تقول له – حبيبي– عند كل جملة توجهها له، بينما فكتوريا تخاطبه بكلمة – سيد يوسف– إبتسامات الأخير لفكتوريا كانت بمثابة تخدير وإعتذار معا، في نهاية الدعوة عند الإنصراف وهم في طريق العودة طلبت فكتوريا أن ينقلها الى المستشفى ليأخذ ميسون الى بيتها.

أثناء عودته الى المستشفى زار يوسف مكتب الدكتورة.

يوسف: من حسن الصدف أن ميسون تزوجت قبل شهر من زميل كان معنا ويعيش في فرنسا، كانا وما يزالان سعيدين وأثناء الدراسة، تجمعهما قرابة العمومة.

فكتوريا: أسوأ ما فعلت أنك لم تخبرني بهكذا زواج مؤلم، كنت أنصحها أن تجري فحوصات خاصة لها ولزوجها قبل الحمل لتتجنب مساويء تلحق للجنين. على أية حال، انقل تحياتي ورجائي لزميلتك أن تزورني قبل الحمل.

(١١)

إجتمع العم نبيل بكامل المعنيين بنظام المدينة الفاضلة لدراسة التقرير الفصلي المتبع غالبا، حضر الإجتماع بطلب منه ممثلون عن مجلس أعيان البلدة، نافع يوثق محاور الإجتماع وجدول الأعمال من مهمات بهيجة، بتكليف من نبيل، تلت منسقة الجدول الفقرة الأولى وهي عبارة عن أحتمالية عبور زائر غريب آخر بعد أن شاعت أخبارها أنها المأوى الآمن لكل محتاج للأمان، لكنها لا تستبعد إختراق أيّ غريب آخر حدود المدينة، كل الإهتمام وبالدرجة الأولى صبَّ حول إنتقام ثم عبدالله، ولما إزدحمت النقاشات؛ إصطفت الأطراف بكتل متنازعة الأهداف.

نبيل: الذي ارجوه من الجميع، ألا يزاحم أحدنا حديث الآخر في نفس الوقت، هذا من جانب، ومن جانب آخر، إختصار الحديث كلما أمكن لغرض مشاركة الجميع لطرح أفكارهم شريطة عدم الإساءة لحديث الآخر.

لجوء نبيل لضبط الحوار كي يفسح مجال الحديث واسعا للوفد الضيف.

إقتنع ممثل مجلس الأعيان أن جهود مجموعة نبيل يجب أن تُثَمَّن بالجودة مع مراعاة المراقبة المكثفة لنتائجها.

لويس: باعتبارنا النخبة الممثلة من قبلكم وبناءً للمسؤولية التي بذمتنا تجاه بلدتنا، وفي إجتماع موسع مع كل المسؤوليات تقرر وأُثبِت أن البلدية ستقوم بتخصيص مساحة مناسبة لمقر عملكم، عليه إن كان ما تملكون من مال متواضع، المجلس سيساعدكم في إنشاء المبنى شريطة أن يستمر نشاطكم طوعا كما هو الآن.

نبيل: نثمن دوركم لإشعار مسؤولي البلدة عن حاجتنا لمقر مناسب نمارس بجد نشاطنا، نعتبرها مبادرة تستحق الثناء ونأمل ألا يكون مكلفا لأننا لا نملك أيَّ رصيد مالي يخص مجلسنا.

أنور: لو مارستم نشاطا إجتماعيا خاصا للأطفال، ربما لجان خيرية؛ وخاصة أجنبية؛ لا تتوانى في دعمكم، مجلسنا سيدعمكم إعلاميا في طبع دعاياتكم وبطاقات الدعوة للمندوبين، كثفوا جهودكم للإلتقاء مع منظمات دولية تسعى هي الأخرى ومعنية لتشجيع تقديم الخدمات وخاصة للأطفال.

نافع: إقتراح وجيه سيد أنور.. بدوري سأتصل بمبعوث كل من اليونيسيف واليونسكو.

نبيل: وبموافقتكم سنودع تحت ذمتكم ما يقدم لنا من معونات مالية مهما كان مبلغها، نأمل أن يكون المجلس خزينتنا يحتفظ بمدخولاتنا ويعتني بإحتياجاتنا.

لويس: أثناء نقاشاتنا في المجلس، يطغي موضوع المشردين على كل التفاصيل، حبذا لو أعلمتمونا تفصيليا خطوة إثر خطوة عن مراحل أنشطتكم معهم، البلدة آمنة ولا نحبذ أن يقلق زائر بصفة مشرد راحتنا، الإحتراز واجب وضروري يا سيد نبيل.

إتضح من فحوى نقاشاتهم أن لابد من الإسراع في أزاحة القناع عن حقيقة إنتقام إستنادا الى الخطة التي صب بنودها العم نبيل، ساعدت وثائق نافع بجولاته بصحبة زميلته في أروقة المستشفى بحثا عن سر إختفاء أثر من كانت تدير بجدارة أعمال المستشفى ومختبرها، شملت جولاتهم شعباً كثيرة وكلٌ مشرفيها في شوقٍ لسماع أخبار الدكتورة، وآخرها كان مكتب المدير، شغلته بجدارة الدكتورة المشهورة قرابة أقل من سنة ثم إختفت فجأة دون ترك أثر لها منذ ذلك اليوم ولحد الآن، كأنه لغز تاه بين المتاهات!

إستنادا الى جهود نبيل ومثابرته بوجوب أن تتمارض إحدى الإناث وحبذا لو كانت متزوجة، تبرعت غريبة لتنفيذ الخطة، أُبلِغَت بهيجة وماجدة لمتابعة إنتقام وإحضارها الى بيت العم نبيل لمعالجة زوجته، بينما كانت إنتقام كعادتها وبموعدها المحدد تشق أزقة المدينة، كانت ترتدي معطفا كمعطف الأطباء يسبقها شاب سألته بانفعال وتوتر شديد وكأنها تتعقَّب غاليا فقدته.

: يا سيد... ابحث عن صديقتي لترافقني الى المستشفى، هل مرت من هنا.. هل تعرفها.!

بهيجة وماجدة أخذاها الى دار نبيل وهي تحث السير أكثر منهم عندما فاجؤوها بمرض غريبة، أخرجت كل الرجال من الغرفة وحذرت بقية الإناث بعدم إحداث فوضى وعليهم أن يطمئنوا طالما أن المريضة تحت رعايتها، وفَّرَت اللجنة كافة المستلزمات الضرورية مسبقا ووضعتها تحت تصرف إنتقام.

وبخبرة خبيرة في فحص أجهزتها قبل إستخدامها نقرت عدة مرات على السماعة لتتأكد من سلامتها مما تيقن الحاضرون أن المدعوة إنتقام تنتقم منهم ولا تفصح عن شخصيتها لهم، أثناء الفحص الأولي شكَّكت أن الخلل في كليتيها ويستوجب إجراء تحليلات مختبرية، ناول نافع ورقة وخطت إنتقام بالإنكليزية المتبعة للأطباء عناصر الفحص ووثقتها بتوقيعها المتبع. خِطَطُ العم نبيل هي من ستكشف طلاسم إختفاء إنتقام من تكون، هذه اللحظات الموثقة ألا تكفي إستدلالاً أن إنتقام ليست إلاّ من يمارس هذه المهنة بإتقان وجدارة، اللغة والخط الذي إستخدمته في تدوين المراد فحصه أليس من خصال ذوي المهن الطبية، لكنهم لا يتجرؤون مجابهتها بحقيقتها قبل أن تُقِرَّ بقرارها الرصين، إحترازا من صعقة تجابهها.

هكذا وبحنكة القيادة أقرت دون حديث أن المدعوة إنتقام ما هي إلا من عناصر الإبداع في مهنة أدّتها وإشتهرت بممارستها.

أسرع نافع بنموذج الإدرار نحو المختبر، الفاحص تذكر التوقيع فالَحَّ يستفسر عن عنوان الطبيبة ليقدم شكره لربه أن الدكتورة فكتوريا لا زالت تعمل وهي موجودة هنا، خط الفاحص على ورقة النتيجة ملاحظة بالإنكليزية وسلمها الى نافع.

نافع: أبشرك يا ماما بسلامة الكليتين، هذا ما شخصه المختبر.

إستلمت، لا بل خطفت إنتقام نتيجة الفحص، وقبل أن تطلع على النتيجة سرقت ملحوظة المختبر بصرها وسكتت وأصابها الذعر وأصيب الجميع مثلها أن النتيجة مؤسفة وحياة المريضة باتت على المحك، ألح الجميع أن تصارحهم بحقيقة مرضها، فإن قالت أن الفحوصات سليمة جدا إذن لمَ خالجها الرعب، توسل العم نبيل أن تكون إنتقام عند مسؤوليتها أمام ذوي المريض، أقسمت بفصيح العبارة أن العمة غريبة سالمة من علة الكلية إن لم تكن مصابة بمكان آخر من جسدها، إنفردت بنافع تستجلي عن المختبر وماذا قال الفاحص بخصوص توقيعها، أَلَم يستفسر عن التوقيع وأين صاحبه وما إسمه واسم عيادته، أَلم يستغرب من هذه القصاصة! كل أسئلتها وجهتها كون الطبيب المعالج هو رجل وليست إمرأة.

نافع: أسئلة كثيرة جابهتها من الفاحص يستدرجني عن محل عيادة الطبيب، سكوتي قطع حبل شكوكه.

الفاحص: أرجوك أسعفنا بمعلومة نحن بحاجة لفكِّ لغزها!

نافع: نحن أكثر جهلاً منك، ربما بعد مدة ستنجلي أمور ما تذهب اليها أوضح.

أنهت مهمتها مع صحة غريبة وغادرت بعد أن غالبها الشك ويكاد شكها يكون يقينا أن المختبر قد عرف التوقيع، لجأت الى الخلوة لإسبوع تستقريء أبعاد كشف حقيقتها لأعضاء المختبر قبل كشفها للعم نبيل، لكن نافع ما صرح به الفاحص نقله لوالده حصرا، فحذر أن تبقى حدود المعلومات التي إنتقاها كل منهم بسرية لدى الآخر.

إن كان لجوء فكتوريا التخفي هل أنها عازمة على عدم كشف حقيقتها، واستبعاد عودتها لمهنتها كفكرة قابلة للنقاش، أو بعبارة أخرى هل أن خارطة يوسف من خيالها قد مُسِحَت دون ندم، لكن ما مصير يوسف أو– عبدالله– كيف للجنة التحقيق لتحققَ إن كان هناك سرٌّ رابط بين الغريبين وثقافتهما ليست كما هو حالهما من إهمالٍ مزرٍ.

بهيجة لاتزال على إتصال مباشر معه بين حين وحين، وعبدالله هو الأشوق للقائها، هل أغراه جمالها! حديثه معها عند إنفرادهما يختلف أسلوبه بوجود نافع وهي بدورها أعلمت بذلك

زميلها، حثها بحذر أن تتقرب منه إن كان غير مرتبط بأنثى، إستبشر عبدالله وقدم تزكيته أنه حرٌ طليَق، لكن ماضيه بالنسبة لها مجهولٌ، قدم إعترافه أنه كان على وشك الخطوبة لطبيبة تعمل في نفس المستشفى التي يعمل فيها خبيرا في صيانة الأجهزة، الضوء المسلط على الشخصين بحنكة نبيل قد قارب نهاية الإستطلاع.

بهيجة: سيد عبدالله.. وماذا حصل بينكما من سوء كي تبتعدا، وما مصير الطبيبة، هل تزوجت وتخلت عنك وأنت تجول بين الطرقات بحثا عنها، وما أدراك ما هو مصيرها! وماذا لو رجعت اليك بعد أن عثَرَتْ عليك كما أنت تبحث عنها باشتياقٍ ملح.

: أنسة بهيجة. كلامك منطقي وأنا صريح معك، أخبار من حاسدين نُسِجَت ضد بعضنا فأبعدتنا وما زلت أعاني ألم فراقها، كلما كنتُ أزورها في مكتبها كان الخادم سباقا لإحضار فنجانين من القهوة الخصوصية، والغريب في ألأمر أن قعر الفنجان لم يكن يلطخُ بأثر مسحوق القهوة.

بهيجة: هل جال في خيالكم فحص المسحوق عندما كشفتم أنه مشكوك في نقائه!

عبدالله: وكلما أتذكر ذلك يشدني الصداع وأعاني منه بعنف، لو كانت معي لأنقذتني منه.

بهيجة: أتعني أنك خسرتها دون عودة؟

عبدالله: إعني ما يعنيه حالي، ما خسرتُ نفسي إلاّ عندما خسرتها، ومثلما رحلت عني الدكتورة فكتوريا ولا أعلم عن مصيرها شيء، رحل عني بصيص من الأمل أتمناه قد يدلني اليها الآن قبل غد.

بهيجة: جدلا نفرض لو الجالسة معك الآن تحولت الى فكتوريا كيف تتصرف معها!

حاول النهوض ليعانقها لكنها صدته.

عبدالله: ليس فقط سأشدها نحوي بل سأركع عند قدميها أطلب الغفران. في حياتي وإن عِشت قرنا بكامله لن أرى كفكتوريا أنثى متكاملة الأوصاف والمعاني.

بهيجة: ماذا تعني بكلمة متكاملة؟

عبدالله: ذكاؤها لا يقاس مع النابغين بل تفوقهم، إخلاصها في عملها مع كل المراجعين في عيادتها أو المختبر ترتقي النخبة كالمُصلِحينَ تاج المخلصين، جمالها، كأنها موناليزا بابتسامتها السحرية، لا تملك صفة لا تنال إعجاب معارفها ومعارضيها على السواء.

: تكاد تقول أنها لازالت في محيط حلمك، إن كانت كذلك هل توصيني أن أكون وسيطة بينكما لو عرفتها.

: بأي حلم أراها يا آنستي! تابعت أخبارها قبل فترة، ربما هي مثلي تجوب الطرقات، ربّي أنا عبدك أعنّي في محنتي، سلسلة أفكاري أحيانا تتشابك وأحيانا اتسلسل في تذكيرها. الصداع لا يدعني أنفرد مع أحلامي.

بهيجة: الآن إطمأنيت بعودتك الى بعض رشدك ودعني أستغل هذه الفرصة لتذكر لي ولو خبرا قصيرا عن ذكرياتك معها، تشجع يا أخ عبدالله بسرد ما تملك من ذكرياتك معها سارة كانت ام حزينة.

عبدالله: أتذكر جيدا مهمتي الجديدة، لكن.. لكن الصداع يؤلمني جدا، ماذا حلَّ بي يا اصدقائي! فإن كان الخبر كذلك هل تبحث هي الأخرى عنّي، يا لَحَظِّي العاثر، صح أن الأرض كروية فكلما ندور حولها لا نعثر على مرادنا، قررتُ منذ اليوم أن أفترش هذه الحديقة ليل نهار. قد يرشدها طريق الحب نحو المحب إن جاز التعبير، أحيانا ولفترات قصيرة جداً أحس أني بكامل وعيي وإدراكي، ثم لا تلبث الساعة تغزو عقلي بانفعالات نفسيةٍ لا يتحملها سجين الزنزانة الإنفرادية.

بهيجة: وماذا تنال عندما تلتحف الحديقة، هل توجست معلومة انها ستأتيك اليها!

عبدالله: أترجاك ومِمَّن يعرف عنها الشيء اليسير، لو صادف وإن لقيَ معتوهة أن يأتوها لي وله ثواب ربه أبد الدهر. يا

ملائكة وأنتم تجوبون الأرض والسماء، إرصدوا مشاعركم نحو أحلامي وهاتوا لي حبيبتي فكتوريا.

قضت فكتوريا ثلاثة أيام في مخدعها دون أن يعلم عن أثرها أحدٌ من أصحابها أعضاء اللجنة، تقلب صفحات ذكرياتها المهنية والغرامية، أين جاهك يا بشر وكم من رقبة إنحنت لك إحتراماً، وكم من وقت اللذة تمتعتَ بحديث الغرام مع الحبيب! يا للسفلة الساقطين، دوما تبثون سمومكم بين المتآلفين الأحباب، إنحدرت من قمم عدة بفعل إنخداعها ولا يعينها معين، وكيف تطلب النجدة وكانت هي مصدرها لكل من يستنجد.

ما أشبه اليوم قبل ألفي عام وأكثر، أُطلق سراح الجاني وأُعدم البريء لأن عدالة البعض تُقرأُ هكذا، لا أحد ينكر فضل فكتوريا، لكن لا أحد يستفسر عن سر إختفائها وأين مآلَ مصيرها، تباحثت في سرها مع كل ذكرياتها، كم من الشجاعة يلزمها لتتصل بأحدهم وهي بعلم اليقين سيهرعون لنجدتها بدءاً من العم نبيل والى آخر بذرة من هذا الحقل الرائع، كرامتها لازالت لم تتزعزع وكبرياؤها لازال ينبض في عقلها، أنها بقدر مسؤوليتها أيام زمان وستتحمل مسؤولية أخطائها وأخطاء حبيبها وإن لم يبادر نحوها بنفس القدر من المسؤولية.

ربما أصحابها في المدينة عرفوا من تكون أو حتما سيعرفون لاحقا، إذن كيف يجب أن تتصرف آنذاك، هل تعلن براءة ممن

أخطأ تجاهها وتعفو عنه زلاته وعلى رأسهم يوسف الحبيب، كم جميلٌ صبر الحبيب وكم قاسٍ حكمه عندما يتجبر.

من مخدعها بعد أن أذعنت منقادة، إتصلت فكتوريا بالحسناء ماجدة رغبة بزيارتها لأجل الترفيه، وكالعادة أشعرت والدها بالأمر لنيل مشورته، أجاز زيارتها لكن برفقة بهيجة. نخبة من فتيات جميلات سيتقابلن في منزل مهجور تتزاوج فيه القطط، إستأنست الدكتورة مع الفراخ أيام الخلوة لتتحول بعد ذلك الى صديقات كمعظم الصديقات من جنسها، دخلت الزائرتان وفكتوريا تطعم أطفالها القطط.

: هذه الجميلات المخلصات هي آخر ذكريات ورثتها من الأحباب ألهو معها وقت اليأس مع أنها لا تعوضني لملء وقت فراغي إلا الجزء النزير.

دخلت الصديقتان وماجدة تحمل جريدة الصباح نُشِر فيها خبر العثور على جثتين لشاب وشابة مقتولين، الصورة والعنوان نشرتها أجهزة الشرطة تحت عنوان؛ حوادث الخطف والإغتيال؛ خطفت فكتوريا بعنف الصحيفة من يدها وانشغلت بالقراءة.

: تذكرتهما، جرمٌ ما بعده إجرام، حذرناهم لأكثر من مرة أنهم باتوا في قوس الخطر وعليهم أن يحترزوا، كانت أشد عنادا مما أنا فيه، كانت تقول دائما ؛ الموت أفضل من الإذلال؛ تالمت كثيرا وكأني فقدت أختا وأهلي جميعهم إستشهدوا في موت

جماعي بشع لا يذكر عنه التاريخ حتى في الحروب العالمية وهي تستخدم الأسلحة الفتاكة.

ماجدة: لذويهم ولك الصبر الجميل يا عزيزتي ف...

إنتقام، يتعلم المرء من تربية الحيوانات الأليفة الكثير من الدروس، الإخلاص مثلاً والشعور بالحنان، غالبا عندما تمررين يديك على فرائها كي تطيعك عندما تشم رائحتك.

إنتقام: هي فعلاً كذلك، هي أوفى وأخلص الأصدقاء للناس، تكاد تبكي عندما تحس أني أخرج، وكالطفل الجائع تتبع حركاتي في المنزل، عَوَّدَها صاحبها واعتنى بها وتعرفتْ عليَّ في بيته، أهداها لي وأعتز بها. هل فهمتم سبب تعلقي بها يا صديقاتي.

بهيجة: وصاحبها ألا يزورها ليطمئنَّ أن هديته في مكان آمن، أم أن ثقته بك لا تحتاج الى متابعته لها.

إنتقام: هي فعلاً كذلك، زيارته لها منذ أن أصبحت بذمتي إنقطعت ولا يتابعها أو بالأحرى لا يعرف عنها شيئا. هل تشردت!

ماجدة: هكذا هو البشر يتوحش على حيوان أليف رحيم!

بهيجة: ربما يجهل محل إقامتك فانقطعت أخبارك عنه، أما كان الأفضل أن تدعيه ليزورها أو تاخذيها ضمن جولة النزهة اليه، أنت أيضا المقصرة بحقهم وحقه.

إنتقام: هي فعلا كذلك، كان يجب أن أرفض هديته لئلا أشد خيالي بذكريات أليمة، آلمَتني وعانى هو الآخر جسامة آلامها وتقاسمناها بجميع مفرداتها، ولا نستقصي عن نهايتها متى ستأتي، يخيل لي أني في آخر مطاف جولاتي في دروب الضياع لو بان لي بصيصاً من آخر حلقة من قراراتي لأستعيد كامل وعيي، صديقاتي العزيزات.. حلمتُ ليلة أمس أني أعالج مريضة وكأنها أنت يا ماجدة، كانت تعاني من شدة آلام الطمث، هل أنت كذلك! هل فهمتِ ماذا أقصد!

: أنا فعلاً كذلك يا دكتورة، حذفنا منذ اليوم لقب إنتقام لأنك مصدر العطف والحنان، هل توافقين على اللقب الجديد!

: إذن سترافقك بهيجة الى المستشفى لإجراء اللازم، سأدون نوع الفحص وبدون تأخير تأتين بالنتيجة. أفهمتم!

إمتزجت تحليلات الزائرتين معا وكأنها خرجت من عقل واحد، أنها تقاسي ألم هجرة رفيق عزيز عليها، وهي تشتاق يوما لزيارة تجمعهما.

دخل نافع من غير ميعاد فرحا يبشر الآنسات بالخبر المفرح أن عبدالله يرغب التعيين في مستشفى المدينة بصفة خبير في صيانة الأجهزة الألكترونية. إرتبكت فكتوريا بذكر التعيين والمستشفى ومهنة التخصص، إنها علامات كادت تفسر سر نقل الإهتمام بخبر الشخص، إن كان المعني هو يوسف بعينه

فلا يحتاج الى التعيين مجددا، بل العودة الى موقعه كما كان، وهل كادر المختبر سينقل له خبر الدكتورة أنها هنا وكيف سيكون موقفه، هل سيتابع خبرها بجدية، وإن إستدل مكانها بأية وسيلة كانت، هل سيلجأ اليها لغرض المصالحة والعودة نحو الأحضان.

بهيجة: كان آخر إتصال بيننا قبل أسبوع في حديقة المتحف، نشط الجسد والعقل معا، لم ألتمس حيرة إنعزاله لما مضى بقدر المصير المجهول الذي أوقع نفسه فيه.

نافع: أبديت تعاوني معه لتخفيف آلامه، وأتذكر فقرات من حديثه عن إنسانة إن كانت أمه أو شقيقته وأغلب ظنّي كان يقصد التي يحبها وتخلت عنه، وفي أوقات كثيرة كان ينشد أشعارا يتغزل بحبيبته ذاكرا أسمها برمز النصر.

إن كانت هذه الأخبار مقلقة أو سارة على عقل فكتوريا، تعمدت تجاهلها وكأن الأمر لا يعنيها لكنها تحترق ككومة حطب تحت الأنقاض، ومختصر ما قالته بحقه، أنه عديم الفائدة بالنسبة لكم، وأفضل ما يقدمه، هو إحياء الجمادات المبرمجة لتخدم طبقة ما!

ماجدة: أخت إنتقام.. عذرا أخت دكتورة هل الوالدة بحاجة الى متابعة أخرى أو تحليل للدم مثلا، مازالت تعاني من وعكة تقلقنا كلنا والوالد أكثر.

أنتقام: لنذهب الآن ونطَّلع على صحتها، لو استوجب الأمر سنجري لها الفحوصات المطلوبة، وإن تطلب الأمر للأشعة سنصور الصدر أيضا.

(١٢)

الفلسفة التي يتبناها نبيل سواء في حياته المهنية أو الإجتماعية، أن تُقِرَّ أنَّ المصالحة بكل مساوئها وإن كانت منبوذة هي أفضل بكثير من مشاحنة ونزاع حسنٍ وليس نحو الأحسن، بينما رأيُ الثنائيُّ الزائر يتنقل بين مبدأين، لا الذي يقبلونه ويرضون به هو الأفضل، ولا الذي يبغضونه ويرفضونه من أساسه هو الأسوأ، آراء لمعتقدات سامية يتعامل معها نبيل مع الفريقين المتخاصمين ليتقرب الى جوهر وجدانهما محاولة لإصلاح الرتق كلما هو ممكن، هل حقا أن ما بينهما قد إنقطع وفتق والترقيع لا يجديه نفعاً. وهل حقاً ان فرح بعض الشباب بحلم مع فتاة تؤرق لياليهم هي أفضل من سبات أو غفوة دون نتيجة!

رويدا رويدا تُحاك شباك متينة حول فكتوريا لتعترف بإقرار من ذاتها أن واقعها هو كذا وكذا والى نهاية المسلسل. اللجنة بأعلى درجات الحذر تتعامل معها بعد أن قطعت أشوأطا مهمة لكشف حقيقة الدكتورة وأسباب إنعزالها عن وظيفتها، إنه نفس طويل كشعبة الإستخبارات دقيقة في تعقب الأحداث لكشف حقيقة الجرم، هكذا تمرست اللجنة يقودها رجل الدولة الذي كان يتميز يوما ما بكفاءة عالية في كشف المجرم وهو في ذروة

نشاطه الوظيفي قبل عقدين من الزمن. إسمه أثناء التحقيق كان يرعب المدان ويرتجف قبل إستجوابه، فإعترافه منذ بدء مساءلته يوفر لعذابه فرص راحته.

أحيلت الى شعبته ملفات تحقيق في جرم سببه كادر متقدم لطرف سياسيٍّ، وأدوات الجرم شاخصة لا تحتاج الى أدلة وقرائن بقدر حاجتها الى شجاعة مجابهة الجاني. بداية إستجواب المحقق كانت مع المجنى عليه، وهو شاب وسيم يحمل شهادة جامعية يتوسل بتعيينه في أية دائرة كانت لأنه على ابواب الزواج. وقدم كل ما يتطلبه التعيين من وثائق ومستمسكات ضرورية، بحيث ضم الملف كل معلومة عن الأهل والأقارب والأصدقاء والإنتماء السياسي يُقال عنه بالإسم المقزز " تحقيق هوية " فإن إحتوى الملف على معلومة بسيطة تثير عقلية مسؤول التعيينات، ستدرج تحت عنوان الإرتشاء، الشاب فقير لا يملك ثمن شحاطة وحذاؤه ممزق وكأن الكلاب قد تلاعبت بها.

المحقق: أنت محق بما تطلب، تعيينك ليست منة عليك، ولا تكلف الدولة سوى الإقرار بحقوقك، الواجب الأخلاقي للدولة يلزمها أن تلبي طلبك وطلبات غيرك ممن يتوسلون لإيجاد مصدر رزق وإن كان ضئيلاً.

: سيدي المحقق.. حاولتُ جهد الإمكان أن أعثر على عمل وإن كان وضيعا لحين تعييني، ليس فقط جيوبي خالية، بل يكاد

عقلي يفرغ من تمنياتي. ألا تخجل الدولة؛ أو بالأحرى "الحكومة" من شاب مثلي يتسكع للحصول على ثمن وجبة طعام لأهله!

المحقق: هل أكملت كل مستلزمات التعيين وقدمتها للجهة المعنية واستلمتها فعلاً!

: بكل تأكيد سيدي المحقق. عندما قدمت الملف كان عبارة عن ورقة واحدة فقط سُمِّيت بطلب التعيين، وكنت أفرح شديد الفرح كلما يُطلَب منّي إحضار مستمسك آخر، ثم مستمسك غيره، حتي تحول الطلب الى مجلدٍ بعدة أوراق، ربما عدد تواقيع المسؤولين فاق عدد كلمات الطلب، لا بل أن ورقة الطلب لم يبقوا فيها مساحة لختمٍ آخر.

المحقق: وماذا كانت نتيجة الطلب.

: حسب تفسيري، إن لم أُساوم على طلب بعضهم، فأن مصير الملف تستقبله سلة المهملات في أفضل الأحوال.

المحقق: وما يعيب من أمر حكومتنا أن البعض يستغل موقعه لمنفعته حصرا، وبعبارة أوضح، هل طُلِبَ منكُ هدية أو مبلغٌ ما وبعبارة صريحة!

: سيدي المحقق..الذي بلغني أن أدفع المبلغ لشخص يسمى أبو جبار، لو كان معي هذا المبلغ لدفعته في الحال، لا أملك في جيوبي سوى فراغٍ يملؤه الهواء.

المحقق: ما دمتَ قيد التحقيق لا تخشَ عن ذكر أسماء عرقلت أمرَ تعيينك إن كانت بسبب الهدية أو بسبب الإنتماء.

: سيدي المحقق، الذي عرفته لاحقا، أنه من أحدِ المتنفذين يدعى "رعد القهار" أجهله من يكون، وأجهل أيضا مركزه الوظيفي، أرجو إعفائي من ذكر أسماء أخرى بسبب رقي منزلتهم سيدي المحقق، هذا الطلب سيدي المحقق سيكلفك متاعب لك ولي معا، أخشى مشاكسة من لا طائلة لي بمقامه! أنا نادم جدا لإحراجك في متابعة قضيتي سيدي المحقق، ليت الدولة تستعين بخبرات كخبرتك.

المحقق: إن كان لك حديث غير هذا أعلمتني به، فأنا من المعنيين لأمر سماع دعواك، وبخلافه، عد الى حيث كنت لأغلق الملف.

: سيدي القاضي.. عندما طعنت حرماني من التعيين ليس لأفرش أمامكم مصائبي فقط دون نيل حقوقي، سيدي القاضي.. الذي حرم شهادتي من التعيين أراد مساومتي ولا أمتلك وسائلها ولا كميتها، هدية معنوية ومادية، فسِّرها مثلما تشاء سيادة القاضي! يئستُ والملل شلَّ قدراتي العقلية، مسؤول كبير في دولة غنية يطلب هدية من فقير مثلي!

أين أنت يا رب من قساوة بعض عبادك تجاه الفقر والعدم، إنتهى التحقيق مع الشخص ليبدا المحقق مع الجاني. دخل

شخص أنيق بهندامه واثق من مركزه، بين شفتيه غليونه وسبحة يطقطق بخرزاتها، سلم بهزة من رأسه وجلس دون أن يكرمه المحقق بالجلوس شأنه كشأن كل الناس حال التحقيق معهم، قدم نفسه قبل أن يرحب به المحقق إن جاز الترحيب بالجاني.

: أنا رعد كما تعرفني جميع مكاتب وزارتك، لكني لم أتشرف بمعرفتك سابقا، كنت مع الوزير ليلة أمس في نادي الضباط والى ساعة متاخرة من الليل. بخصوص إستقدامي لتحقق معي أوصاني أن أكون مرنا أثناء الإستجواب، الموضوع في عداد الإغلاق وانتهى مفعوله، لكن لا بأس أن نقضي وقتا لنرتشف فنجان قهوة عربون تعارفنا.

المحقق: عندما تكون في النادي مع الوزير يختلف جوهر تواجدك داخل غرفة التحقيق.

رعد: بكل تأكيد، أجواء النادي مغرية عندما ترافقك حسناء تستمتع بنعومة أصابعها

المحقق: سترافقنا في أجوائنا حسنات أسئلتي وأجوبتك.

رعد: أفصح بوضوح رجاءً.

المحقق: لشؤون التحقيق قدسية، وعلى الجميع مراعاتها.

رعد: أفهم أنك تعاملني كأيِّ شخص آخر غير رعد!

القاضي: وما الغريب في ذلك!

رعد: مركزي وسمعتي لا تسمح لك باستجوابي، إنصياعي لأسلوبك مرفوض إن كنت تتباهى بمكتبك، فأنا بحكم مركزي الإجتماعي أتعامل معك!

القاضي: رعد.. إن شئتَ أسميك سيد رعد، وأنت الذي قدم ضدك من توسل بك لتتوسط لأمر تعيينه. هل ما سمعته الآن هو الصحيح، وإن كان غير ذلك، صَحِّحه لتفيد حالة التحقيق، وبقدره سيخدم إفادتك.

رعد: نبيل.. أو بالأحرى يا محقق نبيل.. هل أنا مسؤولٌ عن التعيينات لأعين من يقدم طلبا لذلك، الذي سعى اليك ما هو إلاّ نبذة منبوذة من حثالات متمردة تستغل وساطات مشبوهة وأنا بعيد عن هذه الشبهات.

المحقق: من هو أبو جبار يا رعد؟

رعد: لا أعرف أحدا بهذا الإسم.

المحقق: يقال عنه أنه زبون دائمٌ لدى بعض الدوائر المشبوهة هدفها إبتزاز المواطنين..

رعد: وما شأني في القضية، فتِّش في ملفاتك السابقة عنه وألبسني تهمته، ما هذا الهراء يا نبيل، الذي تلقبه بـ أبو جبار، هو طارق، من أقرباء برلمانيٍّ نشط، أنت بالذات ستتوسل اليه ليقدم لك نصيحة كيف تتعامل مع ذوات الشأن الرفيع أمثالي.

المحقق: الذي يهمني من القضية، أن المجني عليه قد شخصك بالإسم والمركز، أنك السبب في عرقلة تعيينه لأنه تمرد على بعض طلباتك.

رعد: جميل.. جميل جدا يا محقق نبيل، إساءتك هذه ستكلفك الكثير، تذكر ما قلتَه وما قلتُه لك!

المحقق: سأدون عبارتك هذه في ملخص مطالعتي انك تهدد موظفا في مكتبه اثناء ممارسة مهنته، ولن أهتم من تكون وما هو مركزك، مهمتي أنفذها بإخلاص طالما أستند الى قانون، هل الموظف مهما كان منصبه هو فوق القانون!؟ الذي أطلبه منك أن تحترم القانون الذي يحميك من تجاوزات الفاسدين.

رعد: وآخر حديث معك يتوقف عندما تنال جزاء تطاولك. إنتظر نتائجه ولن تتأخر.

نبيل: الأمر الثاني الذي هو الأهم قد طرأ رغما عني على طاولة التحقيق، بماذا تفسر حَبكُ شِباكٍ ضد مهندس كل همه أنه يصون أجهزة المستشفى.

رعد: كأنك تهذي يا نبيل.. أو بالأحرى يا سيد نبيل، إذا فسرتها بشِباكٍ أو إحتيال فأنت حرٌّ بتسميتها، لكن ما علاقتي بالموضوع!

نبيل: يقال؛ ومصدر القول رصين ؛ أن شركتكم ستمول المختبر بأجهزة انتم تختارون منشأها.

رعد: وما سبب إنزعاجك لو تم الأمر بالتوافق مع الجهات المختصة وبإتفاق الطرفين.

نبيل: مصادر داخل المستشفى وهي الجهة المسؤولة عن تنفيذ العقد، طعنته وألغت الإتفاق.

رعد: معلوماتك تنقصها الدقة، شركتنا نالت إستحسان الوزارة وما هي إلاّ بضعة أيام ستصل الشحنة، والذي يرفضها يتحمل نقداً وعدا ثمنها ويتحمل أيضا كلفة شحنها عبر عدة مراحل ووسائل، منها بحرية ومنها برية. سيد نبيل.. بلغ تحياتي للدكتورة ووصيتي أن توقع على فاتورة الإستلام بأسرع وقتٍ.

في جولة تحقيقية أخرى مع ثلة إدينت بعمل تخريبي في أهم وأحدث جهاز الأشعة وبحضور المسؤول الفني المباشر كشاهد وحيد ومهم.

يوسف: أن الجهاز جرى التلاعب ببرمجته فقلَّت كفاءته.

المحقق: كم يكلف إعادة برمجته إن جاز تصليحه.

يوسف: خبرة ومال ليس بالكثير.

المحقق: هل ضمن كوادركم من له خبرة وكفاءة في تصليحه؟

يوسف: كان خبيرا وبارعا في مهنته لكن...

القاضي: أنت أمام المحقق وسيكون سندك، أنطق دون خشيةٍ ما دمتَ تمتلك معلومات تفيدنا.

يوسف: سيادة القاضي.. الخبير حسب علمي نُفِيَ الى قرية نائية في مستوصف بسعة غرفتين فقط!

المحقق: هل التلاعب جاء عمدا أم سوء إستخدام؟

يوسف: الهدف الأول هو إزاحة مسؤول الصيانة بسبب صرامته مع العاملين ومحاسبتهم أثناء تأدية واجباتهم بصورة متلكئة، والهدف الآخر هو إيجاد البديل بمغريات تفيد بعض من نصبوا انفسهم بالقيادة الخبيرة.

بإيعاز من المحقق جُهِّز مكتبه بكل ما أوصى به من وثائق تفيد القضية، وبمشاركة نخبة خبيرة من منتسبي المكتب حُلِّلَت ونوقشت بإسهاب كل قصاصة دُرجت مع الملف، شهادة الفني المسؤول أغنت المحقق في إختزال المسافة والعناء واعترف أثناء التحقيق وأمام المحقق على حزمة أسئلة عن عدد أعضاء لجنة الصيانة، ومدى كفاءة منتسبيها ومدة خدمتهم في القسم، وهل كُرِّم المميزون وعوقب المهملون. خبرة المحقق أغلقت تنصل البعض بالمراوغة عن إدلاء الصدق في إفادتهم، وكلما يكتشف المحقق تناقضا بالأقوال من شخص الى آخر، يكون أقسى معهم ويعيد التحقيق مرة بعد الأخر.

الخبير: كانت لجنة الصيانة سابقاً وأنا أرأسها تقوم بصيانة دورية وليس كلما يتعطل الجهاز، وأشهد أنها تتسابق في

إبداعاتها لتصليح أيّ عطل بأقصر وقت، ونالت اللجنة باقتراحي بشهادة الشكر من قبل مدير المستشفى والطبيبة المشرفة.

المحقق: وماذا عن الوضع الحالي، هل لا زلتم في سباق الإخلاص لصيانة الأجهزة!

الخبير: سيادة المحقق، الأمر الآن يختلف جوهريا، إجتهادات خاصة بعيدة عن مهامنا كان لها الرأيُ المفروض. أمانة بما أقسمتُ على يد المشرفة، أن دورنا قد يتلاشى نهائيا باستبدالنا بعناصر مشكوك بخبرتها، كان يعمل تحت أُمرتي لوقت ليس بعيد.

المحقق: والآن !

الخبير: أنا الآن تحت أُمرته كما ترى!

مسؤول الشرطة إستنبط من هذا التصريح الخطير، أن أيادٍ مندسة تقف خلف تعطيل الجهاز، نشر خبراء من منتسبيه بعد إعدادهم بخبرة متواضعة في إستخدام الجهاز وتحت مسميات وظيفية في قسم الأشعة وتم تجهيزهم بكل مستلزمات العمل الإستخباراتي، إنتشرت خلية العمل تعمل كسرية النحل، تستجمع من كل خبر خلاصته وبالوثائق المطلوبة.

الخبير: لستُ مسؤولا عن مقدار كفاءة المنتسبين، المنقول الى هذه الشعبة في الآونة الأخيرة كان مفروضا وكان مرفوضا من قبل الشعبة ووجب القبول به دون نقاش وتذمر.

المحقق: متى علمت ان الجهاز لا يطيع الأوامر؟

الخبير: بداية قبل شهر تقريبا، شكا أحد المصورين أن الجهاز بات هرما، علما أن كفاءته مضمونة لا يستهلك بهذه السرعة إلاّ عبر عمل تخريبي، أخبرتُ مدير المستشفى في الحال أن الجهاز لا يطيع أوامر المصور عندما راجعت زوجةٌ مشهورة من جماعة الذوات وفشل الجهاز أثناء الصيانة وأثناء التصوير أيضا.

على أثرها إستجوبه المدير، وبعد نقاش حاد معه أوقفه عن العمل ولغاية تصليح الجهاز أو تعويضه بآخر، إن كان الخبير مقصراً فهذا شأن القضاء، لأن واجبه حصراً هو صيانة وتصليح الأجهزة فقط، عندما يتدرب المنتدب على الجهاز ويَطَّلِع على اسراره، ما العبرة بنقله وتبديله بعنصر جاهل في المهمة، إن في الأمر شكاً مريبا. عقوبة تجميد الخبير ليست حلاًّ، فالحل حسب تمنياته أن يُعفى عن مهمته في القسم وتحويله الى قسم المختبر لصيانة اجهزتها، وافق المدير في الحال وسيستلم مهامه بعد الإنتهاء من التحقيق.

بتكليف من وزير الداخلية أعيد التحقيق مع رعد، فسَّر نبيل أمر الوزير ليشدد في التحقيق، لأن نبيل قدم توضيحا لمكتب الوزير عن سوء سلوك الجاني معه أثناء إستجوابه. منع مسؤول الإستعلامات رعد من الدخول قبل إعلام ضابط التحقيق بذلك،

أزاح رعد المسؤول عن طريقه كما تُزاح خرقة، ودفع الباب بقدمه وهو يعربد ويلعن الدائرة ومسؤوليها، تحدث باسلوب ساخر.

رعد: سيد نبيل.. متى ستتعلم طريقة إستقبال مرموقٍ كرؤسائك، ألِمثليُ يصَدُّ بابك كي يستشيرك الملعون لإدخالي الى مكتبك يا...إنهض وقف باحترام قبل أن أجلس.

القاضي: من أصول التحقيق إن كان مع الجاني أو مع المجني عليه أن يقف الشخص المعني باحترام أمام المحقق إن كنتُ أنا أو غيري، الأمر ليس أمر نبيل، بل أمر الجهات العليا وعليك طاعتها، عندما أبدأ باستجوابك عليك الوقوف إحتراما للدائرة ولقانون التحقيق! وها أنا أطلبك الوقوف لنبدا المرحلة الجديدة.

رعد: ما هذا الهذيان يا سيادة المحقق!

أرسل رعد رسالة عبر هاتفه الى شخصية متوعدا أن نبيل يجب أن ينقل الى أبعد مخفر حدودي.

رعد: يبدو أن البعض يحتاج لكلام غير الذي يألفونه، مقامك ليس بالقدر الذي تتعربد وتأمر.

المحقق: أُنذرك يا رعد أن المكتب مراقب ومصان بأحدث أجهزة تدين تدخلك بما ليس من إهتمامك، أنا في مهمة حكومية رسمية امارسها وفق القانون، لا أدري هل حضرة رعد فوق القانون والتعليمات!

رعد: أنا فوق قراراتك حصرا، مفعولها كمفعول دواء تجاوز مدة صلاحيته، بل أن صلاحياتك باتت قيد المسح من خارطة التحقيق، سيد نبيل أدرك جيدا مفهوم حديثي إن كنتَ تفهم حديث قائدٍ مثلي!

ملفات نبيل تزداد شراسة كأنها تجارب ليتذمر من تبعاتها ومن أصحابها، نتيجة التحقيق في ملف المستشفى بعد تحويل نتائجها لمكتب المحكمة، أجرم القاضي عنصرين مندسين متهمين بالسجن وكتاب شكر وامتنان للخبير ومنحته إدارة المستشفى قِدَماً لترقية راتبه دعما لإخلاصه.

بعد أقل من شهر من إعداد طبخة في دهاليز مغلقة تسلسلت في بث وإستخدام أساليب التهديد للمحقق ليوافق على حذف بعض الفقرات من تحقيقه مع رعد، أو إعادة التحقيق مجدداً لتَتَبَرَّأ الدعوى الإستئناقية لقرار الحكم، لكن المحقق رفض التهديد وإذا فُرِضَ عليه إعادة التحقيق سيعتذر عن المسؤولية، وإذا تعذر ذلك على الجهات المعنية تحويل التحقيق الى جهة أخرى، وأشعَرَ القضاء أنه المشخص لإبتزازه وعلى السلطات حمايته. على أثرها مُنِحَ إجازة لمدة شهر أُعتُبِرَت فترة هدوء العاصفة حوله وهو بعيد عن الواجهة، بعدها فُرِضَت عليه إجازة لشهر آخر وأعقبتها بعدة إجازات أخرى، أدركها المحقق أن يتنحى

طوعا ويستقيل تكريما لمركزه بدلا من إقالته، فأطاع مرغما أن يذعن لواقع الأمر. قدم إستقالته وقُبِلَت في الحال.

إستبشر البعض وتذمر الآخرون بعد إبعاد نبيل عن مهمة وصفت على مدى مدة بقائه فيها أنها أنزه دائرة لتحقيق عدالة المحقق سواء على الجاني أو المجني عليه، في إحتفالية توديعه تجمهر حوله كل معارفه وزملائه وأقربائه، أُلقيت كلمات التقدير لدوره المميز في مجال عمله وقُلِدَ درع الإخلاص تثمينا لجهوده، ألقى نصيحته الأخيرة درساً لمرؤوسيه.

المحقق: إخوتي وزملائي في قسم التحقيق، عندما إستلمتُ مسؤولية هذا القسم ومنذ اليوم الأول، قررتُ أن أتحمل العبء النفسي مهما كان شديدا قبل الجهد الجسدي، تصارعت مع قيادات وصارعتُ إرادتي ألاّ أنحاز إلاّ لمبدا القانون، أطبقه، لا بل أفرضه على أقرب المقربين وإن كان من أفراد أسرتي، لا يُقَوَّمُ مقام الوطن دون إنزعاج الفاسدين، ولا يتقدم البلد دون إبتسامة المظلومين، القانون يا سادتي سيف على رقاب البعض الظالم، وحزمة ورد للمظلومين، كم كانت التلفونات تزعج منامي في أوقات متأخرة من الليل كي أخفف عبء التحقيق على من أرى أن أصلح مكان لهم هو خلف القضبان، ولم تحملني ثقل الهدايا الكثيرة التي رفضتها وزر صرامة حصر الجاني لمجريات التحقيق ليعترف بجرمه قبل إدانته.

سادتي، لستُ أول من أُستغنيَ عنه ولن أكون الآخير من يزاح عن منصة الإخلاص، الإستكلاب نشط وسيكثف نشاطه اكثر ليستحوذ على المكاسب التي برزت بجهودكم، إن كنتم مُلَقَّحين بدرع الثبات، مارسوا دوركم في كشف الجريمة، لأن الهجمة القادمة ستكتسح كل ما بنيناه من دعائم الأمان، تواصلوا مع قدسية القانون كلما يتواصل البعض إرغامكم على الرضوخ، يقال " الجرس المكسور لا يصدر رنينا " لِيَرِنَّ صوت أجراسكم عاليا تسيغ آذان الطَرشى فزعاً أن للحق وللعدل والعدالة قدسية مصانةٌ.

إزاحتي عن هذا الموقع المهم لا تُثني عزيمتي أبداً، سأتبنى سياستي مع منظمات إنسانية لدعم الحق والحقيقة وإن طالت حياتي. وإن كانت دموعي تنزل رغما عني، فأنا أبكي على حق شعب توسم بالمظلوم والمسلوب.

عيونه وعيون موظفي مكتبه تزينتها دموع التوديع أسفا على رحيله بعد أن خدم عقدين مثيرين إختبأت جرذان الجرم في جحورها، وستنطلق إنتقاما لإعاقة مشروعاتها باستبدال رؤساء كل الشعب.

في مكتبه وعموم الدائرة، أوتي برجال أُمّيين في ألفباء المهنة ممن كانوا يمارسون مهناً بعيدة عن إختصاصات هامة، وقُلِدوا شاراتٍ وسيمةً على أكتافهم يلمعونها إفتخارا.

إنظم يوسف الى شعبة المستهلكات تحت رقابة مَن كان يوسف يُؤَنِّبهُ دوما لجهالته في مهنته، لكن ولأن للدكتورة فكتوريا مكانة مميزة لدى مدير المستشفى تم نقل يوسف الى صيانة اجهزة المختبر، وهكذا تحرك الإحساس الوظيفي بين الإثنين ثم نشط رويدا رويدا فأصبح الثنائي تحت مجهر منتسبي المختبر بين حاسد وغيور وبين غافل كمن لا تهمه الأمور.

تردد يوسف باديء الأمر لزيارة مكتب الدكتورة إحترازا إلا بطلب منها لأمر يخص جهازا أو أي طلب آخر، ولها الحق باستدعائه كلما تطلب الأمر. فِرقَةُ الغيرة إستاءت وحبكت لإيقاعهم في شباك علاقات غرامية مثيرة، دخلت زميلة لها مكتبها ويوسف واقف بجانبها منحنياً تجاه راسها يشرح لها ميزة الجهاز الجديد المصنوع في أرقى المصانع ويفضله على ما موجود عندهم، يشرح عبر مضمون كراس الجهاز"الكتلوك" والأقسام التي يتكون منها الجهاز، تفاجأت فكتوريا دخولها دون طرق الباب واعتبرته عملا تجسسيا، وتجنبا لإبعاد شكوكها طلبت أن تشاركهم نقاشاتهم حول أهمية الجهاز.

الزميلة: برأيك أيهما أهم، الجهاز أم صاحب الفكرة، لازلت يا سيد يوسف جديدا في قسمك، اجئتنا تستحدث أجهزتنا أم تُحدِث ثورةً في عواطفنا! حدود عملك هي خارج حدود هذه الغرفة، وأنتِ يا صديقتي فكتوريا لا أُحَذِّرُك من عمل طائش لكن اليقضة

من المسلمات الضرورية واجب وأنت تتربعين أهم وأخطر شعبة في المستشفى هذه. فلو كان حريصا في أداء واجبه ما كان يتجاوز حدود الإدارة.

يوسف لم يبدِ إستياءه من إستفزازها لأنه المعني بإشعار مسؤوله الأول، وأن المشرفة على المختبر هي الدكتورة وليس مدير المستشفى.

فكنوريا: وأنت يا زميلتي؛ عذرا إن كان حديثي معك قاسيا بعض الشيء؛ أنتِ هي آخر شخص إن كان له رأيٌّ مسموح له لإسماعه للدكتورة. نحن الإثنين نمارس عملنا باحترافية وقدرة متناغمة، سيد يوسف يرشدني نحو أكفأ جهازٍ من الأجهزة مما موجودة في السوق المحلي وأجودها، وأنا واثقة عن إختياراته.

قدَّم يوسف من جديد أسفُه وأعتذاره مرة أخرى، خرجت بعين حاقدة على الإثنين مع غمزة عين من الدكتورة تعني؛ لا تهتم؛ طرحت فكتوريا مشروع إستحداث الأجهزة للإدارة بعد تزويدها ببحث طويل من قبل يوسف، نال الطلب ترحيب الإدارة وأمر بتكليف لجنة المشتريات وبمشاركة يوسف التهيوء حالما تُخَصَّص الميزانية المطلوبة، إجتمعت اللجنة التي تضم إضافة الى خبراء في الأجهزة، ضمت إستشاريين في قسم المباني لتخصيص الأماكن المناسبة في كل قسم لنصبها، وبالتنسيق مع

يوسف إتفق الجميع أن تبدأ الإستعدادات والإتصال بالمنشأ عبر قنوات الكترونية قبل السفر لبلد المنشأ.

بحكم الوظيفة زاد الإحتكاك وتكثفت اللقاءات بين العنصرين يوسف وفكتوريا، وتناقلت اخبارهما من غرفة الى أخرى، شبكةٌ تقودها زميلتها مع تكحيلات مُهَيِّجَةٍ للأُذن قبل العقل، أن غرام الإثنين سيفسد عملهما جَرّاء مراقبتهما، حوَّلت فكتوريا مكتبها الى أقرب موقع للمختبر لأمر تدارَكَتْهُ أنه مناسب من عدة جوانب، فسَّرَه يوسف أنها بصدد تقليل زيارته لها، وفسرها المنتسبون أنها تشدد رقابتها على العاملين، هكذا كما يقال .

دونت فكتوريا في دفتر صغير مقتطفات يومياتها بفقرات لا تزيد عن أسطرٍ قليلة، وجاء تركيزها على السلبيات المجتمعية التي تحدث في دائرتها ومكتبها حصرا، أو في عموم ساحة البلد، في الغالب كان أسم يوسف تحشره دون لزوم لضرورته في كتاباتها كزائر عابر فقط، إحدى مجرات مكتبها كان مستودعا لبعض خصوصياتها ومنها دفتر مذكراتها وبعض الأقلام الملونة تزين مفردات ما تكتبه لإبراز من تعنيه بلون مخالف واسم يوسف يتكرر كلما تذكره.

شاء الأمر أن يزور مدير المستشفى أهم شعبها، فوقع إختياره كأول خطوة شعبة المختبر ليختبر نزاهة عمل منتسبيها، بُلِغت الدكتورة بالأمر واستعدت لإستقباله بفرح وانشراح ولم تكن زيارته

غير تقليدية، إستفساراته الكثيرة كثفت حول سير العمل والإحتياجات التي تراها الدكتورة ضرورية لتحسين أداء العمل، وكل ما تمنته كطلب مُلِحٍ أن تُحترم مكانة الطبيب لدى بعض المراجعين من ذوي السلطة، وحدثته عمّا حصل لها مع أحدهم، يبدو أنه كان على علم بما ورد في أقوالها ولم يُتخذ وقتها أيُّ إجراء يصون حقوقها وحقوق كل زملائها وزميلاتها، فردها بجواب.

: أن التعامل المرن مع أيٍّ مراجع ومهما كان شرسا أو جاهلا فهو لصالح المريض أولا ثم الطبيب، الدبلوماسية ضرورية في الميدان الطبي أيضا، لأن الجاهل لا يعترف بدور العلم وما هي مصلحته فيها، نسايره الى آخر ما نتحمله كي يحس أن ما يقال له هو من صميم واجب الطبيب لصالحه حصرا، لنبتعد قليلا عن ألفاظ نتداولها نحن الأطباء مع بعضنا ونصوغ ما يستوعبه المريض الجاهل.

كثف المدير ملاحظاته حول الطريقة المثلى في تنظيم غرفة المسؤول وتوزيع أثاثها، هنا وفي هذا الموقع حصراً يجب أن توضع شماعة الملابس، وهذا الركن من المكتب يجب أن يُستغل لسلة النفايات، إندهشت الطبيبة وكأن مسؤولها هو خبير بالديكورات وليس ضمن مهنته، أبدت تعاطفها مع أرائه، ليس إيمانا بل أحست أنه يخبيء لها أمرا آخر ليحاسبها بعد أن إنسجم مع حديثه وعيناه باتجاه الدفتر وهو مفتوح على آخر

صفحة دونت فيها في تلك اللحظة ويقراها صامتا، يهز رأسه دون أن ينطق كلمة، غادر الغرفة بعد أن قلب الدفتر وأغلقه.

بعد جولاته التفقدية لجميع الشعب والأقسام، نظم إجتماعا يحضره كافة مسؤولي الشعب في مكتبه وكأنه ديوان رئاسة الدولة، توزع الحضور على مقاعده الفاخرة وحجز المقعد المجاور لمكتبه حصرا للدكتورة فكتوريا، مجمل حديثه الذي لم يستغرق أكثر من نصف ساعة إنصب نحو مواضيع عامة لا تمس واجباتهم المهنية.

: من لا يحترم المريض يحتاج الى علاج نفسي، ومن لا يواكب مسيرة البلد السياسية ولا يتفاعل معها مهنيا، إزاحته من موقعه أسهل من قذف قشور الفستق، توجيهاتكم ودون إستثناء لمنتسبيكم يجب متابعتها ومدى ما تم تنفيذها، محاسبتكم لكل مقصر يجب أن تكون رادعة وصارمة وآنية بغض النظر عن القرابة ونوعية العلاقة، كلما شخصتم خللاً وفي أيّ موقع وقسم، أبلغوا إدارة المستشفى وبدورها ستتخذ كل ما يلزم من إجراء بما في ذلك النقل الى موقع أدنى.

إستأذن طبيب في عيادة طب الأسنان للحديث، نبَّهه المدير بالبخل في حديثه ولا يتجاوز عن دقيقتين فقط .

الطبيب: العيادة تحتاج وبشكل ملح الى بعض الأجهزة الدقيقة وهي رخيصة نوعا ما.

المدير: هل تريد أن نخولك لتشتريها!

الطبيب: عذراً دكتور.. ليست مهمتي أن أطوف وأتفقد المحلات، على ادارة المستشفى تكليف الجهة المعنية لتأمين إحتياجات العيادة.

المدير: لو خولتك الإدارة بذلك وسلفتك المبلغ نقدا ألآن، أرجو أن تقبل إقتراحي.

الطبيب: هل هو إختبار لكشف إن كنتُ فاسدا يا سيادة المدير! لستُ ممن تعتقد أني أركع لمهمة لا تخصني.

في نهاية الإجتماع أبلغ المدير الدكتورة أنها ستكون آخر مسؤول ستتصرف لأمر خاص، تحول من مدير متسلط عابس الى صديق وزميل يصافحها وكان لقاءهما هو الأول وربما سيكون الأخير.

: زميلتي وعزيزتي فكتوريا، إن لم أرّشَّح لمنصب هام في موقع الوزارة، فما تبقى لي في هذا المنصب ربما لا يتجاوز أشهراً عدة ، سأتفرغ بعدها الى أموري الخاصة الأسرية، وكما تعلمين أعيش وحيدا بعد وفاة زوجتي وكانت زميلتك في الكلية أثناء الدراسة.

بكل أحاسيسها كانت تصغي الى مفرداته وتجاوبت تجاهها في قرارة ذاتها سلبا، قضيا معا دهرا في هذا المكان ولم يتجرا

مناقشتها في غير موضوع مهنتهم، هل أصاب بغيرة عن ذكر أسم يوسف في دفترها أيقظ عاطفته تجاهها!

: قد لا أكون جاهلاً عن الفارق بين عمرينا، وكم من مثلي لا زال يُدرج إسمهم في حقل " أعزب" أخطط منذ الآن عن أمر زواجي ولن أختار إلا التي اتأكد أنها الصالحة.

فكتوريا: سأُساعدك في إقناع من ستختارها، الأرامل الشابات الجميلات يبحثن عن زوج صالح مثلك، إن شئت سأقدم لك قائمة بالعشرات وهن خيرة سيدات البلد، ومستشفانا يعج بالكثيرات وكلهن يتحلين بأخلاق وجمال لا يوصف.

: ليست كل جميلة الجسد أن تتحلى بجمال أخلاقها وطبائعها، الجمال حالة مؤقتة يندثر ويزول مع تقدم العمر، بينما الأخلاق تنمو مع تقدم العمر، وبصراحة متناهية دون مجاملة وبكلمات مقتضبة، ما هو إنطباعك تجاهي، هل أنا مؤهل لأطلب يد فتاة مغرم بحبها، هل أتقدم لمن إخترتها وتملكني شكوك رفضها، بقليل من البسمة ربما أحصل على كلمة نعم، قدمي نصيحتك فأنا بحاجة الى معين من شخصية كشخصيتك.

: كل ما أتمكن مساعدتك أن تبحث وتفسر، واحذر أن تخدعك آراء غيرك لأنك متكامل الذكاء والبصيرة، أستأذن، مكتبي ينتظرني رجاءً.

أهذا هو الخرف أم جنون الحب كالمراهق يتلاعب بعقله! عربتك مستهلكة لا تتحمل وزن شابة عزباء، ياسيد إبحث عن التي تتوسل بك وليس أن تتوسل بمن تختار، لا تفرض هرم الوظيفة في العلاقات العاطفية، إن كنت حقا تسعى الى إستقرار عيشك الرغيد وأنت على أبواب ترك الوظيفة قانونا، إجعل مِمّا تبقى من عمرك مستقرا كمعيار لطاقتك الجسدية والفكرية.

بتقدم العمر تنفك عنه كل الطاقات، والمستلزمات الزوجية تأتي في مقدمتها، لا يا سيد، لا تتباهى أنك الأفضل ومن تتمناها تركع تحت قدميك، ستخسر وزنك ومركزك لو تجاوزت حدودك، فمن يراهن على مباديء؛ كانت زمنا ما من المغريات؛ تحولت اليوم بفعل فاعل الى مراهم فاسدة مضرة، إذا إشتهر إنسان، يتعرض لحالتين متناقضتين، إما أن يُكرَه ويُحسد، أو يكون مثار إعجاب رفاقه المخلصين، وهذا ما يمكن قوله على حالة فكتوريا.

مضى أكثر من شهرٍ على لقائهما والنتيجة تبتعد عن التحقيق كهدف قياسا الى طموحات المدير، هل يفرض عليها شروطه كلما يستغل مركزه أم بعنفوان عواطفه تجاهها، أم يلجأ لمغريات أخرى إقتصادية كان تكون، طاولة تفكيره محصورة بطموح الفوز بها مهما كان الثمن وبأيّ أسلوب كان، فإن لم ترضخ للتهديد سترضخ حتما للترغيب، والأسلوب الأنجع هو

إبعاد الحبيبين عن بعضهما، وبما أن لمسؤوليتها في قيادة المختبر لا يمكن الإستغناء عنها، فمن السهل نقل يوسف الى شعبة لمنصب لا يمت بصلة في المختبر وأجهزته ويبعد مسافة غير قليلة عن مكتب الدكتورة.

راهن على هذه الفكرة وخطط لتنفيذها. إستخدم نظاما عسكريا في تنفيذ قراراته عندما يمس الأمر كلا من يوسف وفكتوريا، لا يسمع مشورةً ولا يسمح لأحد مناقشته، كأنه يعيش نظاما عسكريا ؛ نفذ ولا تجادل؛ أحدث فوضى في كل الشعب والأقسام بتبديل ملاكاتها، ولأن فكتوريا تحمل شهادة الطب العام إظافة الى إختصاصها في المختبرات، أُحيلت الى شعبة في قسم الطواريء كطبيبة ممارسة، ونُقِل يوسف الى شعبة المخازن خارج البناية الرئيسية في ركن منعزل.

خاض المدير صراعا نفسيا مع جميع المنتسبين إثر إصابته بعاهة نتيجة جرح أصاب جمجمته في حادث سيارة فقد جراءها زوجته، لازمته حالة الكآبة وستستمر معه لعدة سنين قبل شفائه إن شفي قبل وفاته.

(١٣)

كُلِّفت مجموعة من منتسبي الطواريء مهمة مراقبة الدكتورة وتوثيق حالة يُلَبِّسونها لا تكون عقوبتها أقلّ من الإستغناء عن وظيفتها إن لم تُسَق نحو السجن، راجعتها ذات مرة إمرأة تبدو مسنة لا تشكو ظاهريا من شيء لكنها مرهقة، فزيارتها لشعبة الطواريء تجاوزت صلاحيات أطباء الإختصاص، نصحت مَن رافقها لمراجعة طبيب آخر، فأن إرتأى أن علاجها هو لدى شعب الطواريء ليحولها، ولا تتوقع أن يتم ذلك، ألحَّ أحد مرافقيها برجاء أن تقوم الدكتورة بفحصها وعلاجها لأنها مصابة بالكآبة بسبب وفاة زوجها، للمرة الثانية أفهمته أن قسم الطواريء إسمٌ على مسمّى.

الطبيبة: إسمع يا أخي.. هل تناولت السيدة دواءً دون وصفة الطبيب مثلاً.

المرافق: لا لم يحدث، أنا المكلف والمشرف على تعاطيها الدواء، لكنها تتمرد أحيانا كي تتناوله دون مساعدة احد.

الطبيبة: هل سقطت من درج أو إنزلقت في الحمام.

مرافق آخر: لا لم يحدث، الحمام مزود لكل جوانبه بمساند ومقابض متينة وهي حريصة على إستخدامها. عنيدة بعض

الشيء من إنتعال مطاطيٍّ أثناء الإستحمام، أعتقد أنا تزحلقت قبل شهر لكن دون إصابات.

الطبيبة: هل تعرضت الى عنف من أحد كالضرب!

مرافق آخر: ويل لمن يتجرأ ان يكون حديثه معها أخف حلاوة من العسل باستثناء حفيدها الأصغر، مدلل ولا تبخل بكلام بذيء لمن يعنفه.

تضاربت أقوال المرافقين في وصف حالتها، ولأنها مسنة ولكي ترتاح نفسيا إقترح أحدهم أن تصف لها دواءاً وإن كان أقراص أسبرين ضمن العلاج النفسي، رفضت فكتوريا أن تعطيها أي نوع من العلاج ما لم تتم احالتها الى القسم، وأمرت مرافقيها بإخراج المراجعة لتفسح المجال أمام بقية المراجعين، تذمر الفريق المرافق وهددها بكلمات نابية بحق الطبيبة وبحق كل العاملين في هذا القسم فالعقوبة في طريقها اليها قبل وصولها البيت.

تعاني فكتوريا من الجهلة عندما تتنمَّر وتأمر، نصحتها زميلتها في القسم أن تستخدم الأسلوب الأجدر في إقناع هكذا نماذج جاهلة، على قصاصة ورق بكتابة غير واضحة أو بدون توقيع عن علاج ما، أفهمتها كيف تحمينَ مركزك من مشاكسة بعض الجهلة! مارستها زميلتها كلما يلح المراجع أن تكتب له ما يطلبه من دواء معين، على الطبيبة ؛ حسب قولها ؛ أن تستعين

بالذكاء قبل العلم في إعطاء الدواء لبعض المرضى، في الغالب يلجأ المريض للطبيب لمعالجة نفسية قبل الجسدية، يطمئن المريض أنه سيتحسن حال دخولة مكتب الطبيب.

أهذا هو علم الطب أن نخدع المريض بالعلاج النفسي المؤقت ويبقى يشتكي من علته لاحقا! فكتوريا لن تنحاز لهذا النهج وإن كلفها الكثير مهنيا واجتماعيا، أقسمت بإخلاص في ممارسة عملها مع المريض إن كان مخاصما معها أو من يودها.

عندما خرجت من القسم لمتابعة حالة مريض عالجته كان مصابا بجرح مميت في نزاع بسبب الحرب، واجهها شخص من مرافقي المُسِنَةِ وأعاق سيرها موبخا إياها بإصبعه.

: أنتِ ساقطة ولابد من الإقتصاص منك، ولن ندعك لاحقا لتمارسي حياتك دون عقاب صارم، لا بل سنحملك قانونيا مغبة إهمالك لفحص مريضة توسلت اليك لعلاجها، سوف لن أتعامل بالمرونة معك غدا أو بعده وستحصلين على مكافأتي، استعِدّي لنيل ثقلها!

غادرت المرأة ومرافقيها الشعبة وحديث أحدهم كجهاز هدم البيوت يطرق جمجمتها، تُحَدِّثُ نفسها كأنها تحاور أحدا.

إذا كان المجنون في الغالب لا يضر ولا يسيء سوى ذاته، فَما الضير لمعالجة الشرس الذي تطال حماقاته الآخرين وهم من المسالمين!

: طيلة حياتي المهنية لم أرتكب خطأً بحق المريض أياً كان، ولن أتجاوز حدود غيري من الأطباء لأي أمر كان، لكن بعض الجهلة إن كانوا في موقع المسؤولية يفرضون توصياتهم على الطبيب باستخدم أساليب ملتوية إغراءً أو تهديداً فهذا من شأن الإدارة أولا ثم القضاء لمعالجة التجاوزات، أنا أدرك ماذا أعمل ولن أتجاوز أبدا صلاحياتي المحدودة، هل تفهمون؟

حقوق مهنة الطب لا يحميها قانون الفرض ولا أيّ قانون آخر عندما تتلاعب به النزوات، وفي الغالب تنحاز لجانب ذوي السلطة والجاه ليحاسب الطبيب المخلص في عمله، أساليب النصب ضده تتنوع، ومنها مثلاً التحرش إذا راجعته جميلة تبادر هي أولا بالملاطفة والإبتسامة معه وكانه صديق قديم، وكل هذا يخطط له لإيقاعه في حبالها، أو بفرض مريض جاهل نوع العلاج الذي يرغبه وليس الذي يعالجه، والإمثلة على ذلك كثيرة خزنتها ملفات في دائرة الشرطة، ولا تعالج إلاّ بترقيعات مزرية.

في زيارة غير مرتقبة دخل رعد القهار مكتب فكتوريا ومعه أكثر من شخصين والدكتورة تجهل هويتهما.

فكتوريا: وإن كانت تحيتك باردة المشاعر، لكن لا بأس سأقبلها لئلاّ تسيء فهمي أني حاقدة على أسلوبك الخشن إياي، كل مشاعري وأحاسيسي تحولت الى آذانٍ صاغية.

رعد: آنستي الدكتورة، أسلوبك المرن فتح لي باب الغفران أني مسامح لك لكل كلمة سوء نطقت بها تجاهي.

فكتوريا: سيد رعد.. لم أمارس غير حقي لِما طرحتَه بشأن الأجهزة التي حدثت شرخا أثناء حواراتنا.

رعد: ولأجل ذات الموضوع أتيناك يا دكتورة.

فكتوريا: قدمتُ طلب نقل من الشعبة، أنتظر يومين آخرين لصدور أمر نقلي.

رعد: وليكن نقلك أخر بركة تقدميها لي.

فكتوريا: إن كانت بعيدة عن مسؤولياتي، فأنا أعتذر سيد رعد. وانت الأدرى بخلاصة أخلاقياتي.

رعد قدم لها ملف التجهيز.

: الأجهزة بكامل تفاصيلها وصلت مخازنكم في المستشفى.

فكتوريا: وما المطلوب مني لأخدمك.

رعد: توجه يبشرني أنك إستوعبت كيفية التعامل بالمثل.

أخرج من حقيبته علبة مغلفة باعتناء وقدمها لفكتوريا.

رعد: وهذه هي هدية متواضعة لا تناسب مقامك، لكن لاحقا ستغمرك الهدايا كلما تمررين مشاريعي دون ضجة.

: آسفة سيد رعد، خدماتي ليست للبيع إن كانت لك أو لغيرك، بارك الله بما تملك، أرجوك إحتفظ بهديتك لمن تخلفني

موقعي، آسفة سيد رعد، بالوقت الذي أثمن دورك، أعتذر قبول هديتك.

رعد: ومن سيتحمل مسؤولية سلامة الأجهزة من العبث.

فكتوريا: حتما انت ما دامت بعهدتك.

رعد: الشحنة معنونة لقسمكم حصراً وعليك مسؤولية إستلامها الآن يا دكتورة فكتوريا.

فكتوريا: أعتذر لسببين، أولهما أني مجازة رسميا لمدة اسبوع ولا يحق لي ممارسة أيّ عمل، أتواجد هنا الآن لأمر خارج مسؤولياتي المهنية، ثانيا وكما أعلمتك أني بصدد نقلي من القسم، كان من المفروض أن تتصل بي قبل أسبوع أو اكثر لأتفرغ لمساعدتك، أكرر إعتذاري سيد رعد.

رعد: توقيتٌ نجحت في تحديده، سأعمل جاهدا وإن صدر أمر نقلك أن ألغيه ليكون أسمك رئيسة لجنة الإستلام.

فكتوريا: لن أستلمه ولن تتمكن من إيقاف أمر نقلي، سيد رعد، لستُ فريسة سهلة البلع.

رعد: إذن أمامي خيارات أخرى سأستخدمها.

فكتوريا: لو تدخل الوزير كوسيلة ضغط لن اركع، ومزيد من المجاملات لا أتقنها، سيد رعد فتش عن جهة أخرى وعن طبيبة غيري، أنهيت أقوالي ولا أحبذ التكرار.

ترك رعد مجابهة فكتوريا، لكنه لم يترك سبل إرغامها عبر وسائل أكثر فعالية.

عقوبة نقل يوسف الى المخزن قلصت عدد زياراته لمكتب فكتوريا لكنها لم تؤثر على نوعية العلاقة معها، يتزاوران كلما نشط الحنين بينهما عن طريق طلبيات الطواريء لأجهزة أو معدات وهي تحت أُمرة يوسف، المدير يبث أزلامه بين أروقة المستشفى ومحيط قسم الطواريء وتحديدا غرفة الدكتورة ليترصد تحركاتهما.

توجه يوسف الى شعبة الطواريء حاملا علبة كارتونية يبدو أنها ثقيلة بعض الشيء والممر الضيق الى سبيله مزدحم بالمارة، إصطدم مع منتسب إن كان عمدا أو حالة أخرى، على أثرها سقطت العلبة وتناثرت محتوياتها، ساعد من كان حاضرا في الموقع للملمة القطع وتوجه بها ثانية الى وجهته، فحصت لجنة الإستلام محتويات العلبة وكانت ناقصة أهم قطعة فيها، أُعلم المدير بالأمر وأثناء التحقيق عوقب يوسف غرامة بثمن القطعة التي يفوق سعرها ضعف راتبه، ومن هنا بدأت شباك المدير تحيط بالمحبوبين، تم تنزيل درجة المهندس يوسف الوظيفية الى مساعد لجاهل كان عتالا في المخزن. قاسى الأخير الأمرين على يده عندما كان المهندس مسؤول الشعبة.

إذا كان هدف المدير معاقبة الدكتورة لمَ اللجوء الى طرق ملتوية، جرأته ينقصها الوعي والإدراك في التخطيط والتنفيذ، الباب الواسع المؤدي الى غاياته يحرسه مؤازروه المناوؤن جدا لمنافسة الطبيبة، لكن كيف يوجه وبمن يستعين، هل هدفه إرغامها لتركع عند رغباته، أم أنه إجراء لمعاقبتها بنقلها من المستشفى كإجراء أخير. خيرها لتختار أحد الإقتراحين، إما الإذعان متوسلة للقبول به، وفي حالة الرفض أن تختار أحد المركزين الصحيين بتوصية من رئيس صحة المدينة، وكلاهما بمثابة النفي، كما كانت تجريه الحكومات السابقة بحق من يشتبه أنه من معارضيها، رفضته مثلما رفضت ترك مركزها في هذه المستشفى، ولن تدع هذه المناسبة تمر دون تأديب لمن يعرقل نزاهة مسيرتها الوظيفية.

فكتوريا لم تَتَرَبَّ لتنصاعَ لرغبات لا تألفها، في صباها وشبابها كانت الصارمة تجاه من يتجاوز حقوق زميل لها، فالويل للذي يتجاوز حقوقها وهي شابة مراهقة مليئة بالنشاط الجماهيري وبحيوية وذكاء، هل وهي في هذا المركز العلمي الرفيع لتطيع توجيهات مسؤول هرمت أفكاره، هدأت قليلاً من هيجان ثورتها لتفكر ماذا يجب ان تخطو للمرحلة القادمة ربما يُلبسها المدير تهمة تطال عقوبتها حدود الأخلاق.

راجعت الوزارة ومعها وثائق ومستمسكات تثمن دورها في قيادة عملها إن كان في المختبر أو في قسم الطواريء، وحصلت على إمتيازات بعناوين وظيفية جديدة. الوزارة بدورها ثمنت جهودها أنها من خيرة ملاكها المتخصص، مالت الجهات النزيهة في الوزارة لجانبها عندما أعلمتهم أن شِباكا تُحاك ضد من تخطط الإدارة للإيقاع بالمخلصين أمثالها وأمثال يوسف.

لا يا سيد، إن كنت لا تقاوم العنف لا تجربه بحق غيرك وأنت على مفرق هام في حياتك الوظيفية، عجل في لملمة أوراقك وانثر محاسنك ليكون توديعك محط التقدير بين منتسبي الدائرة، أفهمت! عندما تقرر فكتوريا لن يصدها رادع عما تفعله.

رحب المدير بزيارة فكتوريا وفسرها أنها أخيرا ركعت كما كان يتمنى، أثنى على مبادرتها.

المدير: بالحقيقة يا فكتوريا العزيزة على قلبي، كنت مطمئنا أنك ستتصرفين بالتي هي أحسن، ثقي ستنالين من مديرك وستحققين كل مطالبك يوم تكونين زوجتي، سأغير أثاث منزلي كما ترغبين، وسيكون عرسنا مهرجانا بأُبَّهة لا مثيل له، سأشطب من قاموس اللغة عبارة "شهر العسل" وستبقى حياتنا كخلية العسل حلاوة.

فكتوريا: بالحقيقة أستاذي القدير....

المدير: آسف يا حبيبتي فكتوريا، لن أقبل منذ الآن أن تصنفينني بالأستاذ، منذ اليوم أنت أستاذتي وأنا طالب أتودد حنانك. تكرمي بالجلوس على مقعدي وأنا مراجع لأتلقى من حديثكِ الشفاء على يديك آنستي فكتوريا.

فكتوريا: عذرا.. إفسح لي المجال لنتحدث عن إشكال حدث لك.

المدير: لا إشكال ولا عُقَد تسد طريقي اليك، كل الإشكالات والعقد بزيارتك هذه قد تم حلها واستئصال جذورها طالما طغى تفاهمنا تجاهنا نحن، في كل يوم كنت أترقب هذه الساعة متى تأتيني فكتوريا بعقلها وجسدها تبشرني أن رغبتي قد تحققت، شكرا يا رب.

فكتوريا: أستاذي المحترم.. إسمح لي وامنحني فرصة لأوضح شأن ما أتيته اليك.

المدير: وهل هناك أمر أكثر أهمية من زيارتك المباركة، أجلّي كل مشاريع المستشفى لما بعد تنفيذ برنامجنا العاطفي، الأقسام والعيادات بمسؤوليها وحراسها وكل منتسبيها سأمنحهم تكريم راتب لشهر إضافي هدية باسمك لقاء رضاك بزواجك مني! وهي من أغلى إهتماماتي.

سحبت فكتوريا من داخل حقيبتها ظرفا مغلقا ووضعته على المنضدة أمام المدير دون أن تنطق بكلمة، هو الآخر سكت

بصمت مندهشا، ماذا جرى لفكتوريا وما هذا الظرف اللعين، هل هي قائمة طلباتها مقابل الزواج، أم هي قائمة طلبات الدائرة تقدمت بها قبل فترة ورفضها المدير، هل قدمت نقلها الى مكانٍ آخر لأنه تجاهل شكواها ضد مسؤول إعتدى عليها بكلام بذيء، أم تقدمت باستقالة من العمل الحكومى وألف وظيفة لشركات أهلية تتمناها لتنظم الى ملاكها، هكذا كان يفكر المدير أنه السبب في تجاهل طلباتها، واعدا إياها أنه سينفذ كل ما طلبته وما تطلبه لاحقا.

المدير: ما هذا يا فكتوريا.

فكتوريا: هذا الذي توسلتُ بك سماحي للحديث وأهملتني.

المدير: وكيف أهملك يا حبيبتي! أخطط لمستقبل زاهٍ يجمعنا يا حبيبتي، زيارتك أعادت لي الأمل لتجديد حياتي.

فكتوريا: السيد المدير.. قراءة محتويات الرسالة من شأنك.

المدير: وهل انا المَعنِيُّ باستلامه!

فكتوريا: الكتاب موجه حسب العنوان، وهو مكتبك حصرا.

يده ترتعش وهو يتناول الكتاب قبل قراءته، بحركات بطيئة نزع الكتاب من جوف الظرف وبدأ يقرأ:

١- يحال الطبيب (....) المدير الحالي للمستشفى الى التقاعد بسبب شموله بالسن القانوني للخدمة وينفك حال إستلامه كتاب الإحالة.

٢- تعيين الدكتورة فكتوريا مديرا للمستشفى المذكور وكالة وتلتحق بوظيفتها فورا حال وصول الكتاب لإدارة المستشفى.

٣- ينقل المهندس يوسف الى وظيفة معاون المدير في المستشفى للأجهزة الألكترونية ويلتحق فورا.

٤- ترفع كل العقوبات الموجة لكل من الطبيبة فكتوريا والمهندس يوسف منذ تاريخ نقلهما.

٥- تنفذ القرارات إعتبارا من تاريخ تحرير الكتاب.

أصيب المدير برعبٍ هستيريٍّ شديد فقد سيطرته على تصرفاته، نزع قطعة من المنديل مسح فمه من رذاذ اللعاب الذي خرج منه ثم أداره نحو أنفه يحشره فيه وكأنه عامل تنظيف المجاري. واجه الأمر بحركات عبثية كالصبي الذي يعنفه والده لقباحة إرتكبها.

هذا الإجراء الذي سبقه االتغيير الجوهري في هيكلية إدارة المستشفى خلق إظطرابا بين متعاطف وساخط، فانقسم منتسبوها ومراجعوها الى فصيلين متناقضين يثيران الشغب داخلها وخارجها عبر شبكات ألكترونية وبكلمات الإستحسان تارة وبالبذاءات تاراتٍ، كثفت الإدارة الجديدة بجهود إستثنائية تحديث أسلوب التعامل بين المنتسب والمراجع بحيث أُلغيت إمتيازات ذوي المنتسب عند المراجعة سواءً بموعد الحجز أو ثمن العلاج، ففي كل إجراء إتخذته الإدارة لاقت السخط أكثر من الترحيب،

يبدو من خلال ذلك أن المستشفى كان حصرا في خدمة طبقة معينة فقدت أفضليتها.

يوسف من جهته حاك دقائق وقته كالسلاسل في مهمته، بات تواجده في مكتب المديرة ضروريا كلما رأى حاجتها ليعينها في تزويد جميع أقسانها بأحدث المعدات لجميع فروعها، ولهذا الغرض تشكلت لجنة مختصة للشراء تضم أعضاء من كافة الشعب وبلغ العدد الكلي عشرة أشخاص بخبرات جيدة في مجال إختصاصهم، وبهذا الإجراء السديد إستُبعدت من الغش أشخاصٌ كانت تستغل مناصبها للإختلاس، هذه الثلة ومع مؤازريها وقفت بالمرصاد بكل السبل أمام الإدارة رغم أنها أُبعِدت عن دورها في إبتزاز الكوادر النزيهة لتطاوعهم دون إرادتها.

الذكاء والنشاط الممزوج للثنائي فكتوريا ويوسف بمؤازرة أنصارهم، تخطت أشواطا هامة لأجل تطوير العمل المهني وحسب التسلسل الإداري للموظفين بدأً من عامل التنظيف ووصولاً الى هرم المسؤولية، الكل يتسابق كيف يقدم أفضل خدمة للمريض، إستغنت الإدارة عن الأجهزة القديمة واُستحدثت بالجديدة بآخر تكنلوجيا صناعة الأجهزة الطبية، فسر بعض المندسين أن عملية تبديل الأجهزة القديمة بهذه السرعة هو الإختلاس بعينه، ابواق الفاسدين تعالت حدة أصواتها أن نزاهة الإدارة الجديدة لم تفلح في التستر على معدنهم المغشوش.

لم تمضِ عدة شهورٍ على توليهم إدارة المستشفى عبر جهودهم الإستثنائية، أحست الدكتورة بتعب وإرهاق نفسيٍّ شديد وانتقلت العدوى الى يوسف بتعب جسديٍّ أشد. بغية إستمرار وتيرة العمل تناول الإثنان بعض الأقراص المهدئة ليس كعلاج بل إجراء مؤقت للإستمرار على مضاعفة الجهود لخدمة المرضى، مع إستمرار تفانيهم ومثابرتهم إستمرت فترة تناولهم للمهدئات فترة أطول، كما لعب المناوؤون دورا خبيثا بمختلف السبل الى ضخ المخدرات للثنائي عبر فناجين القهوة التي أصبحا مدمنين على تعاطيها، ومع تحسسهما أنهما نشطا أكثر، لكن ذاكرتهما بدت تخونهما رويدا رويدا، وكلما كان المندسون يستمرون بضخ المهدئات في العصائر كانت الذاكرة تفقد صوابها، إستعانت بعصير منشط فاستساغته وفضلته على القهوة والشاي.

تحولت فجأة العلاقة الحميمية بين يوسف وفكتوريا ومن دون أن يعرفا السبب، الى أسلوب التوبيخ القاسي ليوسف، شك الأخير أن سموم الحاقدين أتت مفعولها فتأثرت على تصرفات فكتوريا مما غيرت محورها تجاهه فأزاد هماً على همٍّ، تأثير تصرفاتها تجاهه أثقل من أيّ تعب يصيبه، ولم يأبه بداية الأمر، لكن تجاهلها له ومعاقبتها اللامعقولة لأسباب تافهة، أفقد خط تعاطفه معها دون رغبة منه، أهكذا يغير الكرسي أخلاق

من يستغله! هذا العناء النفسي وما رافقه من تعب الجسدِ نال من إتزانه وفقد الكثير من إحساسه العاطفي تجاهها وأثر على مساره الوظيفي بشكل واضح، إستغل بعض المتضررين سوء الوضع الصحي والعاطفي بين الإثنين إلى إتساع فجوة الخلاف بينهما.

في خضم هذا التنافس الشديد بين الثنائي من طرف والمناوئين لهم من طرف ثانٍ معتمدة على فلسفة بان المباديء في أهمية نتائجها الأولية، إستخدمت الدكتورة اسلوب التحذير الشرس لقيادة الخصم دون الإعتماد الى فن المراوغة لكسبهم، بدت تفرز أن أعمال الشر تصدر من خصومها وتنسب لنفسها كل عمل يرشد بالخير.

نشط الجناحان في إبراز مساويء كل منهما للآخر، بحيث أن كلا من الفريقين لا يعرف عن نفسه إلا بقدر ما يصادفه في تجربته الحياتية اليومية، وهكذا إنقسمت إدارة المستشفى الى أكثر من فصيل بين معارض ومؤيد ومحايد، الهم الوحيد ليوسف ولا يزال أكثر إتزانا نفسيا، أن يتقرب لجانب فكتوريا ليعيد لحمة التعاون بين الجميع.

دون إرادة ووعي تتنازع الطبيبة مع أفضل مساعديها لأمر تافه، ومع يوسف حصرا، وإن بدت علاقتهما في عداد الخصوم حينا، لكن جذور الحنان لا زالت طرية في عقولهما، يكاد علنا

أن فكتوريا لا تريد التساوم مع أيٍّ كان وإن كان منتسبا للمستشفى على حساب المريض. فكتوريا الحاذقة المخلصة النبيهة معا، تحولت تدريجيا الى حازمة وصارمة ومؤنبة مع المنتسبين وبعض المراجعين، تنتقل بحواراتها بين الرافض والمقبول لأمر واحد وبوقت واحد، حاول بعض المخلصين لها أن يتوسط يوسف لمعالجة تذبذباتها.

يوسف: ليس الذي أقوله من صناعة جمجمتي يا فكتوريا المخلصون لك عامة يشكون من عدم إستقرارك على قرار محدد تتخذينه أنت، ثم تنبذيه وتتكرين إقرارك له.

فكتوريا: سيد يوسف.. عندما تتحدث معي في أمور المستشفى، فأنا المسؤولة يتوجب عليك أن تدعوني بمهمتي "الدكتورة فكتوريا" خارج هذا النطاق، سَمِّني بما شئت، دع آراء مخلصيك خزينة الإهمال، آراؤهم متضاربة، لأيٍّ طرف أميل! سياستي لن تميل للذي يناصرنى ولا للذي يناقضني.

يوسف: إذن لأيٍّ جانب تستمعين، ولرأيٍّ من تتجاوبين!

فكتوريا: سيد يوسف، أنا بحاجة ماسة الى دعمٍ يسندني وليس لمن يهملني أو بنتقدني، أنت الوحيد الذي يفهمني، وتتهمني بالمتناقضات!

يوسف: بالسعادة نتعلم التعامل مع الأخلاق يا دكتورة، وأنت جديرة بهذه السعادة.

فكتوريا: الكل في هذا المكان، أنت ورعد ومنتهى وغيرهم من لف لفهم من منتسبي الشرطة، تخليتم عن مشقة مسؤوليتي، يصارعني النزية قبل أن يفترسني الخصم، هل هذا مقياس التفاني أكَرَّمُ به يا سيد يوسف، صفحتي بيضاء لا تُلَطَّخ، لا من قبلك ولا من قبل تافهين آخرين.

يوسف: أخشى ؛ وأكاد أجزم وبكل أحاسيسي؛ أن فكتوريا أيام زمان قد ماتت، عندما مزجت في سجلاتها بين المناوئين والمناصرين لها، بودي أن أكون مخطئاً بحقك يا دكتورة.

فكتوريا: حديثك ألَّمني يا يوسف، هل ما تحدثتني به نابع عن حالة جديدة لم أتذوقها قبلاً، هل هي سياسة إستحدثتها لتحاورني وأنا المسؤولة عنك بحكم الوظيفة!

غابت فكتوريا عن اللحاق بالدوام ضنّاً منها انه يوم راحة في العطلة الإسبوعية، أتصلت بها أقسام المستشفى لتطمئن على سلامتها، وبختهم جميعهم أنهم حرموها من حلمها اللذيذ في يوم عطلتها، تاسفت وبسرعة إلتحقت بالدائرة وكان يوسف بانتظارها في مكتبها ولم تحيه بتحية الصباح كالمُتَّبَع، تألم جدا وترك المكان دون ضجة، بعد دقيقتين طلبت حضوره تسأله عن منهاج يومه في توفير ما إتفقا عليه من أجهزة للمختبر، إندهش بتعجب وقال لها بصوت هاديء يكاد يكون غير مسموعٍ.

: أُذكرك يا دكتورة، أنك شاهدتِ وفحصتِ جميع ما طلبته وأنها في متناول المعنيين في القسم.

هزت رأسها بعد صمت لوقت ليس بالقصير.

: نعم صحيح، تذكرت الآن، فهمتُ الآن، هل أنت تفهم ما أقول! يبدو أن الحلم سحب ذكرياتي نحو شعبتي الحبيبة المختبر يوم كان مكتبي يجمعنا، أتأسف سيد يوسف وأرجو قبول أسفي، كنت سعيدة آنذاك، إفهمني رجاءً.

: أفهمك جيدا ولستُ غبيا يا دكتورة، هل تشعرين بألم، أحسَ أن إرادتي نحو المتابعة قد قلصت إن لم تكن قد نفدت، بماذا تشعرين الآن يا دكتورة، إهملي حديث الحاقدين إنه أخطر من السموم.

فكتوريا: مكتبنا تعرض الى الإفلاس المهني يا يوسف وكلانا تحولنا الى الخاسرين الوحيدين، أتدري أن كل الشياطين تتحشد عند حافة سرير المريض لتستجوبه بما قدمه من دعم لغيره لتسلبه منه عند حافة قبره ليدان من ربه. أشعر بإرهاق نفسيٍّ وجسديٍّ، إظطراب، في تعب، في نسيان، وفي كل مفصل في جسدي، لا أستبعد التخلي عن منصبي. أرجوكَ ساعدني يا يوسف، هل تفهمني يا يوسف!

: أنا الآخر كأني مشدود الأعصاب دوما، مهمتي منهكة وأنا مكتئب من تشتت تفكيري لأيّ جهة أميل، عنوان وظيفتي أفقدني

التخصص وكنت أُتقنه بشهادتك، ليتك تعيديني الى ما كنت أعمله بطاقات كاملة.

فكتوريا: سأقرر عندما أستقر نفسيا لأني قلقة جدا لما أنويه، ساعدني يا يوسف، حاجتي الى العون من قبل أمثالك مطلب ملح قبل أن أفقد ذاتي نحو المجهول.

أيُّ رعبٍ سيمتلئء عقل الإنسان عندما تُعرض له آلام ومقابض بؤسٍ بما تعرض له في حياته، يقال إن الذاكرة وعاء البقاء، فأيَّة معلومة إستقرت في ذاكرتها كي تتبنى لاحقا ما تقرره!

بهكذا تفسير تجد نفسها منقبضة كأن تفكيرها يوما إثر يوم يشد الخناق حوله، لعنة الله على يوم رضيت بعنوانها الحالي، تطلب السماح من يوسف، لم يعد باستطاعتها إستيعاب ما تقوله، حاجتها الى الهدوء بعيدا عن الوظيفة ربما سينتشلها هذيان آخرتها، لا تدري هل تجهل أم تتجاهل ماذا تعمل وكيف يجب أن تتصرف.

فكتوريا: إفهمني يا يوسف، إني بحاجة لمن يفهمني، ساعدني يا يوسف، أكادُ أسقط أرضا، هاتِ ساعدك أتكيء عليه، قدمايَ شُلَّت وعزيمتي تقهقرت، ماذا حلَّ بي، أنت يا رجل وليس لي في هذه الدنيا معين غيرك، أعِني بكلمة لطيفة رجاءً. يوسف أتتذكر أسرتينا كيف أُبيدت كالحشرات!

يوسف: ومن يواسيني غيرك يا... من أنت لتطلبي ساعديّ عونا لكِ، الكلاب الجائعة إنتشرت حولنا.

فكتوريا: ضحايا الحكومة كمكافحة القوارض منتشرة، هل نحن من حضيرتها يا سيد يوسف!

يوسف: هل تعرفين صاحب أشهر مقولة بحق الحكام الفاسدين، إنها " حبُّ القسوة " يا دكتورة.

مع مرور الأيام بالساعات والدقائق تظهر علامات التعب والإعياء النفسي عليهما وعلى صحة فكتوريا أكثر دلالةً. كأنها تحولت الى جسد خالٍ من الأحاسيس والعواطف، تنكر ما قالته قبل ساعة، وتنسى إسم أعز الناس عليها، يوسف هو الآخر أُصيب بعدواها، ولم يصبها مرض معدٍ.

قدمت طلبا لإجازة ولم تحدد بدايتها ولا نهايتها، وصيغة الطلب والخط الذي كتبته ليس كما كانت ذكية باختيار لغة سليمة وخط متناسق جميل.

: سيد.. عذرا نسيت اسمك، سأغيب ولست أعلم متى أعود، ربما أسافر في رحلة الضياع نحو المجهول ولا أعلم أين هي وجهتي، جواز سفري جاهز ولا أدري أين اتوجه، أحيانا أنسى من أكون، وأحيانا أنساك وأنسى إسمك أيضاً، هل صحيح أنك كنت حبيبي ذات يوم ولم تقبلني! يا حبيبي.. الجنة توجد حيثما تفقد ذكرى الآلام والمآسي، وأنا الآن بعيدة عن متعة الحياة، لا

أفكر بما يلي ولا اتذكر بما كان، ربما الهذيان يفقدني مودتي، أنت إنسان تافه ومنبوذ وأنا خادمة تستوحشني ملابسي. هل تحب كنس الشوارع!

شابٌ وفتاة مقطوعان من شجرة عائلتين مُسِحَت آثارها، وكادا يتآلفان لِلَمِّ آلامهما في عقد ربّاني، لكن سباق القدر المصاغ ألغى حنانهما وباتا لا يعرفان أحدهما الآخر، أية جرعة خبيثة شاركا تناولها فأقعدت نشاط فكرهما، أيهما تسبب في تشتيت علاقتهما، فكتوريا تناست من هي وماذا حل بها، لا تتذكر من حياتها سوى الدقائق القليلة التي تعيشها الآن، جولاتها في الطرقات تنقلها دون هدف أو وعي، منذُ أن تركت الدوام وهي شاردة متشردة، من زقاقٍ الى آخر ومن رصيف تفرشه الى آخر، ومن متجر تدخله يترحم عليها صاحبه ببعض النقود ثم تقذفها بوجهه، تتناول وجباتها من باعة الرصيف وكأن الأكل مباح للمارة.

يوسف هو الآخر تاه بين الخيال والواقع، أين غادرت حبيبته ولماذا تخلت عنه، أيُّ سوءٍ أصابها وأية مصيبة حلت بها، هل حقا أنه يدرك ما حل به ولأي سبب ترك دوامه، الذي يتذكره فقط هو أنه لا يتذكر أمراً حدث قبل دقيقة من الآن، أين مسكنه. وأين هي وجهته، نسي أنه إنسان سويٌّ، يختلق الأعذار لبساطة عيشه، يتحاشى التودد مع الآخرين، قليل الكلام الواضح، كثير

الهذيان عندما يكون منفردا لذاته، الشيء المميز فيه أنه رشيقٌ نظيف الهندام ويمشي بخطوات متزنة في الطريق الوحيد الذي تعرف اليه دون وعيٍ.

لا يملك من المقتنيات سوى دفتر صغير وغليونه المعبأ دوما، ما هذا الحي المسكون دون حركة، يكاد البشر قد تحول الى ما تُسمّى بمخلوقات العصر الجديد، هل هم مثلنا نريد أن نستذكر ولا نذكر ألا الدقيقة التي أتحاور نفسي بها.

تجاهل عما موجود في المدينة من طرقاتها وأزقتها سوى المسلك الذي تعود أن يسلكه كل يوم، ويتواجد في محيطه كأنه باحث عن أمر فقده. القلة من عابري السبيل إرتاب من حرصه تواجده يوميا في ذات المكان وذات التوقيت، بعض سكنة الحي شكَّ في أمره فاحترزوا من أمره، والبعض الآخر رأى أنه ربما يتبنى غاية خطرة لحرصه على " النزهة" المبرمجة زمكانيا.

(١٤)

بعد يومين من تركها الدوام أُصيبت بأرق طيلة النهار والليل، خرجت دون واجهة تقصدها، جلست في سيارة أجرة واقفة دون أن تنطق أين تريد أن تتوجه، السائق ينتظر تكليفه أين يذهب بها، ولما طال إنتظاره قال.

السائق: وإن بدت ملامحك أنك مشردة، لكن ولسبيل الله، قولي أين آخذك.

فكتوريا: الى حيث أرتاح.

السائق: وأين أجد مكان راحتك يا معتوهة!

فكتوريا:عند حافة الفردوس، حيث الأجواء الصافية.

علم السائق أنها معتوهة وربما تشحذ، ناولها نقدا من فئة عشرة آلآف دينار.

السائق: طريق الفردوس تحت الصيانة لتزاحمه بطابور الراحلين اليه.

فكتوريا: خذني الى حيث الأمان أستمتع برنين النواقيس.

طاف بها السائق باتجاة بلدة مسيحية لتنعش بقرع الناقوس، نزلت بعد أن ناداها طفل مشاكس.

الطفل: على هذا الرصيف ستوزع بعد قليل ملابس لكل الأعمار مجانا للمحتاجين.

فكتوريا: أنت ساذج يا غلام، الكسوة الجديدة لا تفرش على الرصيف، بل تُعَلَقُ كالمشانق، تمددت على جانبها.

منفذ نجاتها مقفول وليس لها أحد يتعقبها، إنتعلت حذاءاً باليا وقميصا فوق سروال ملطخ بالقذارة فقد مادته ولونه، تدخل محلا تجاريا وصاحبه ينقدها ببعض النقود سرعان ما تقذفها بوجهه، يفسر عملها أن الكمية قليلة جدا لا ترضيها، فيبدلها بأخرى والحالة تتكرر بين الإهانتين القذف والتعويض، ثم تختار جزءاً من رصيفٍ لتتمدد عليه وكأنها شريدة تائهة بلهاء، حن عليها بعض المارة ممن يجادلونها عساهم العمل ليجدوا سبيلا كيف وبماذا يساعدونها.

: ما اسمك يا فتاة.

: لا أتذكر. ليس لدي إسم، سمني بما شاء ذنبي.

: ومن أيّ بلد أنت.؟

: من هذا الرصيف.

: ومن هم أهلك وأين ذووك؟

: هل تتذكرون.. لابأس إلعنوني بما يكفيكم.

: سيدة لا تعرف ما اسمها ولا موطنها ولا ذويها هذا إنتقام بحق الإنسانية والوطنية.

: وكيف عرفت أن اسمي إنتقام، أنك ذكي جدا، تستحق أن تشتغل في المستشفى، سأُعَيِّنُك طبيبا، هل رضيت؟ هات ورقة

لتاخذها الى مديرها ليعينك مراسلا للطبيب. فعلا أنت تستحق أن تكون مديرا للشرطة وللبلدية ولكل دوائر الحكومة، حكومتنا فقيرة الحال، لا تبلط الأزقة، ألا يوجد لديك ماء! هندامك وهيكلك وحديثك كأنك متلبس تحت ستار وحقيقتك هي من إستخبارات أخشاها. أشعر بتعب أريد أن أتجول. إبتعد عن طريقي قبل أن أنادي يوسف، أفهمت يا غبي، يوسف يا، ماذا قلتُ، نسيت ما قلتُه.

كسائح تائه من زقاق الى أخر، ومن متجر الى آخر دون هدف تلف وتطوف ونادرا ما تسأل أحدا، وإن إستفسرت عن شيء لا يستوعب السامع من حديثها عن معنى. تشير الى قنينة ماء بحجم خمسة لترات مصفوفة في برادٍ بإعتناء.

: الماء في هذا الحوض تشربه أم تستحم به، إنه عصير مؤذٍ، أنصحك ألاّ تشربه كعصير.

في الأيام الأولى في هذا الحي إلتقت وتحدثت مع فتاتين وتعاطفت معهن، حرصن على عدم مشاكستها وتجاذبت معهن لجمال أخلاقهنَّ.

: معدنكم نظيف، أنا أسخر من سِترَة مديري كأنها بردعة الحمير، أحيانا أشتاق للمختبر، فعلا كان المكتب نظيفا. فقدتك يا، نسيتُ أسمه، ربما يبحث عني، أنا أبحث عن شيءٍ لم أفقده لأنني لا أعرف ما هو!

لا يُقوَّمُ الفعلُ إلاّ عند إجتماع القاضي بالمتهم أثناء التحقيق وإن طال الزمن، وريثما يتيقن لديهن أنها ستحضى بنصيب رعايتهن، ستبقى تحت المرصد، إستبعدت الفتاتان أنها بليدة وتائهة الطرقات، مقتطفات حديثها ينبئء أنها منكوبة تحتاج الى رعاية وعناية إن كان من الدولة أو مِمَن يرحمون أمثال العم نبيل، وفي بيته إجتمعت مجموعة الخير بكامل أفرادها من المدينة الفاضلة بما فيهم الشابان المغرمان بحب بهيجة كل من عادل وقيس، وكل من شقيقاتهما ناهدة ومائدة.

العم نبيل وأفراد أسرته بمعاونة بهيجة تحول الدار الى مطبخ لإعداد ما يطيب لجلسة الحسم، لقاء المتشردين بات وشيكا حسب إستنتاجات الخبير الأمني العم نبيل، أشاد بإمتياز دور الحسناء في ترويض التائهين ليتقبلا تقاربهما نحو أشخاص لا يعرفونهم ويثقون بنواياهم، فكتوريا ويوسف كشفا دون إرادتهما ونثراها بأمان وإطمئنان ما يتذكران وما يحملان من هموم، ربما هموم يوسف ومعاناته أخف وطأةً من مصائب وويلات فكتوريا التي لا تزال لا تتذكر كيف تركت منصبها وحبيبها في آن واحد.

أحيانا كما يمر الشهاب مسرعا، يمر تيارٌ كالصرع في ذاكرتها يفزعها ولا يستغرق أكثر من خمس ثوانٍ ثم يتلاشى، وكلما تعصر جمجمتها لتستخرج منها كماً آخراً إن كان من مأساتها أو أفراحها، دكتورة نالت الرأفة والحنان من العم نبيل

وتمنى أن يلتقي معها بإنفراد، إلا أن بهيجة حذرته وتميل نحو مرافقتها لها إذا أصر على اللقاء، المجموعة بمجملها إنحازت الى راي بهيجة ويتم تحديد الوقت والمكان بالإتفاق بين الإثنين حصراً، شارك الجميع أثناء النقاش بإستثناء العاشقين عادل وقيس، بهيجة هي لولب الحوارات وغمزت لهما أن يشاركا بالكلام المفيد.

عادل: وفي نهاية مرحلتكم نحو لم شمل التائهين، ألا تترحمون بلطفكم على لم شملي مع الجميلة بهيجة!

العم نبيل يراقب مدى تجاوبها ومدى تأثير الكلام على الخصم قيس الذي هو الآخر يتمنى ما تمناه عادل.

قيس: وهل نجري القرعة بيني وبينك لنرى من منا سيفوز بفتاة أحلامه!

بهيجة: وأين هي مشاعري وأحاسيسي يا شباب الحي! هل أنا بضاعة تتقاسمونها، أنا من سأُقَسِّمكم نصفين وقد أتخلى عنكما الإثنين، لو إخترتُ التائه الجوال وهو أفضلكم، لأنني إكتشفته وفحصتُ معدنه، إمسحوا والغوا جميع أحلامكم بصددي لحين إقراري لمن ينحاز ميزان حبي، العم نبيل نصحكم ونصحتكم شقيقاتكم ولا زلتم كالأطفال تتسابقون لدفء الأحضان، نعم أنتما شابان جميلان لكن تصرفاتكما أقبح من قبح منبوذ، ولا أتجاوب

معها إطلاقا حاليا، إستجابتي لأيٍّ منكم سأُحدد وقتها حيثما تنضج قناعتي.

ماجدة: أختي بهيجة.. نصيحتي لك، أن الوقت كلما طال تتضاءل فرص الفرز وأنتِ الخاسرة في اللعبة.

نافع: وهذه هي الحقيقة، الحب كالثمرة، تبدأ بزهرة، ثم تثمر، وتكبر، وتنضج، فإن تأخر قطفها تفسد دون قيمة لها.

صوفيا: بصفتي والدتها، حذَّرتها مرارا أن السكة التي تسير عليها ربما تنزلق وعاقبتها غير مأمونة، لا أحبذ الإسراع مثلما لا أحبذ التباطوء، لك من العقل والإدراك ما لا تستوعبه جمجمة ثور جثيث، لا نمانع بمن تقترنين فهذا شأنكِ، لكن نرفض تزمتك نحو العنوسة.

نبيل: كأنكم تجاهلتم هدف تجمعنا، عزيزتي بهيجة أنقذينا من إشكالية الإختيار، هدفنا الأول والأخير هو عن مصير التائهين الزائرين، هل حان الوقت ليتقابلا كي يتعانقا، أم ما زال الوقت مبكرا، لجنة تقصي الأمور، أتحفونا عن منهجكم القادم حسب البرنامج المحدد، هل حان وقت تصفية إنجازاتنا مع التائهين؟

غريبة: جهودي بمتابعة الغريبة قطعنا شوطا بلغ حدا نتمكن من فرزه أنه شارف المراحل النهائية.

نافع: واستنادا الى ما وثقتُه عبر لقاءاتنا برفقة بهيجة وماجدة مع ما يسمى عبدالله، إلتمسنا شوقه ورغبته أن يعرف القليل

القليل عن أخبار فكتوريا، وكلما كنا نلتمس عنه هذه الرغبة كنا نهدئه أن يستعد ذاكرته ويفصح لنا عن معلومات تفيدنا كي نقوده نحو هدفه.

نبيل: إذن لنبدأ من الآن التهيوء لإعداد موكب ينقسم الى ثلاثة أجزاء كل جزء ينفذ عمله ليكمل عمل زملائه في بقية الأجزاء، مجموعة غريبة صوفيا تنضم الى فكتوريا حصراً، ومجموعة بهيجة نافع ماجدة تنضم الى عبدالله، ومجموعتي بمساعدة عادل قيس ناهدة مائدة، ننتظر إشعارنا ساعة البدء لتنفيذ العمل الجبار من قبلكم بشكل متوازٍ لحظةً بلحظة، ولتكن إتصالاتنا مع بعضنا مشفرة حسب بنود البرنامج، هل أنتم على أتم الإستعداد؟

الجميع رفعوا أعلام أياديهم تأييدا وتأكيدا لقول العم نبيل. توجه قائد كل من المجموعتين الى مسؤولياته، بهيجة إنطلقت صوب يوسف، وغريبة صوب فكتوريا واتفقت المجموعتان على شفرة للتفاهم عبر شبكة للبث المباشر، تنطلق بقية أفرادها نحو المكان المحدد برفقة الثنائي يوسف وفكتوريا.

(١٥)

زار السياسيُّ المتعجرف رعد الطبيبة فكتوريا كي ترقع جرحه يبلغ طوله ثلاثة إنجات وعمق إنج واحد، حسب التعليمات لا يعالج جرح دون موافقة قسم الشرطة في المستشفى لمعرفة سبب الجرح، كل الحجج والتوسلات معها لم تركع أمام رعد لتستجيب لطلبه، وإن أصر على ذلك ستطلب تدخل الشرطة لطرده، بعد أقل من دقيقة بعد خروجه عاد ثانية برفقة مسؤول شرطة المستشفى يرجو فكتوريا أن تعالج جرحه.

الضابط: دكتورة فكتوريا رجائي الأخوي أن ترقعي جرحه.

فكتوريا: سأساعده شريطة مصارحته سبب الجرح.

رعد: دكتورة... لتكن بداية زيارتي لعيادتك إزالة الغشاوة بيننا بسبب شحنة الأجهزة، بخصوص الجرح، كنت أشحذ سكينا إستعدادا لقدوم الجزار ليذبح الخروف، إنزلق السكين وجرحت ساقي، والجرح بسيط لا يحتاج لتخدير عند الخياطة.

الضابط: حسب خبرتي لا أتوقع أن سبب الجرح جاء بفعل سكين وهي بيدك!

رعد: أرافقتني لتعمق خلافاتي مع الطبيبة يا حضرة الضابط! دكتورة.. أرجوكِ يا دكتورة ساعديني قدر المستطاع.

الضابط: كان المفروض أن تتنسق معي عن سبب الجرح قبل إمتثالنا أمام طبيبة لا تقبل التوسط.

رعد: يا دكتورة.. كما تشائين فسري سبب الجرح، مهمتك محصورة في علاجي وليس تحقيقا عن سببه! هل تلقيتِ شيئا عن دروس المدعو نبيل!

فكتوريا: ماذا تقترح سيدي الضابط، هل تسجل علينا مخالفة ما وإن كانت جزئية، وعلى من، فكتوريا لا تخالف القسم ولا تخاف العقوبة لأن مساري مستقيم.

رعد: إذن لا مفر من صراحتي وهي تمس كرامتي، لجارنا شاب مشاكس يتسلق الجدار المشترك بين دارينا، حسبتُ باديء الأمر أنه ينوي قطف بعض الثمار من حديقة منزلي، وقلت لا بأس ليقطف، تابعتُ حركاته، إنها تتم بأوقات محددة عند خروج زوجتي لتتشمس في الحديقة وهي نصف عارية، نصحته مرات ولم يذعن لنصيحتي، هددته بالقصاص وتجاهل تحذيراتي، خرجت عليه وبيدي سكين ليس لأطعنه بها، لكن لكي يخشى أن عمله الطائش مرفوض تعقبه مسؤوليات جمة.

الضابط: بعد التهديد والوعيد، اين وصلت جهودك في منع خبثه؟

رعد: تمادى في سلوكه اكثر، خرجت اليه ثانية أحمل مسدسا بيدي من اجل التهديد فقط. يبدو انه كان يخبئ سكينا تحت

قميصه، تشابكنا بالأيدي ووجهت فوهة مسدسي نحو رأسه تهديدا فقط، لكنه أخرج السكين وطعن ساقي.

فكتوريا: حضرة الضابط.. سمعتُ قوله وأكاد اصدقه، هل تزوده بورقة عدم ممانعة تَداويه، أم أحوله الى جراح ليقوم بمهمته.

رعد: يا دكتورة.. كفانا فضيحة، طعنتان لا أكثر ولا تحتاج الى تخدير.

إتصلت هاتفيا بطبيب جراح لينوب عنها لمهمة ليست من أنشطتها. آخر كلمة هدد بها رعد إن رفضت العلاج، ان نقلها من المستشفي أسهل من جرعة دواء مر.

يوسف في حديقة المتحف كمن ينتظر لقادم يقطع عنه شروده، بهيجة من شباك المتحف تراقبه وتفسر حركات يديه، وكلما كان يعجل ويسرع في إتجاهاتها، تعني شوقه لنهاية ما هو فيه بعد أن إستعاد نصف ذاكرته، تذكر حبيبته فكتوريا بمنصبها وشهرتها، لكنه يجهل أين هي الآن ولماذا هو هنا. توجهت نحوه بهدوء لعلها تسمع بعض كلماته وهو يحدث نفسه.

: يا حبيبتي فكتوريا، أين ألقاك، إن كنتُ أنا السبب سأركع عند قدميك، وإن كنتِ أنتِ السبب لك منّي السماح والغفران، يا جماعة الخير، كبصيص من ضوء ساطع اتطلع أنه سيفاجئني أننا سنلتقي.

حَيَّته بهيجة وفَزِعَ من الصوت لأنه لم يكن على موعد معها، بادلها التحية بحرارة، ربما ستعينه في العثور عليها.

: مرحبا بآنستي الجميلة المبتهجة دوما، ودائما في الوقت المناسب تأتينني لتقطعي حبال شرودي، يقال إن الذاكرة هي وعاء البقاء، كانت حياتي قبل بضعة أيام على وشك نهايتها، لكن الآن وبفضلكم أُعيدت لي نصف حياتي، هل يا آنستي تعوضينني بالنصف الآخر! كأني أرى ظلا يتبعني، ليته ظلها لأحاوره ملء اشتياقي.

بهيجة: صديقي العزيز.. إسمح لي أن أتجرأ أناديك بالأخ يوسف، هل انت جاد بقبولك بهذا الإسم؟

إستغرب.. كيف عرفت أني هو يوسف حقا، ألا يعني ذلك أن كامل قصتي تحفظها وتعرف من كنتُ أحبها، قلصت المسافة وعليَّ أن أستجيب معها طالما تتمنى مصلحتي، يوسف لا تخشَ من صديق لا يضمر لك غير الحب الودود.

يوسف صارِحها وعليك ألاّ تكذب وإن كان في صالحك، فمن يريد أن يحيا في ذاكرة الناس، عليه أن يسعى بحثا عن ماضٍ عريق وماضيه مخزن للعطاء منذ أن وعى معنى الإنسانية منذ صباه والى الآن.

يوسف لا تخشَ كشف معاناتك لمن يهدف معاونتك! مضى على تعارفك معها كذا مدة ولم تلمس منها غير الإهتمام والدعم،

يوسف وأنت بهذا الحال البائس جئت الى هذا الحي ولم تكن تتذكر من أمرك سوى اللحظة التي تتحدث بها، نعمة ربك نزلت اليك عبر بهيجة، ومجموعة التنسيق قد أُعادت اليك نصف ذاكرتك، يا يوسف تحلّ بالصبر وأنت امام مفترق صعب، فإن أحسنت الإصغاء ستنجو من آفة فقدان الذاكرة، وبخلافه سيغزو النسيان محيط عقلك وكأنك شبيه بليدٍ فَسَدَ عقله.

تذكر قول بهيجة عندما نادته باسمه.

: نعم أنا بلحمه وشحمه يوسف المهندس، بدأت الآن ذاكرتي تستعيد حيزا كبيراً من قوتها عندما كشفت إسمي وكنت أُخَبِئه خشية أزلام الفساد، الذي أتمناه وأرجوه إحتفظي بالسر كوني يوسف المهندس.

يا يوسف.. كلما أسرعتَ في كشف حقيقتك لمن يعينوك أسرعت ذاكرتك لإستعادة قوتها، رويدا رويدا سلسلة ذكرياته تتعاقب، تارة يبتسم وتارة يتألم، ثم يضحك بصوت عالٍ ضاربا كفيه ببعضها ثم يرفع إصبعيه دليل علامة النصر ولغزا لحبيبته.

بهيجة: نعم هي كذلك ستنتصر لك، مهنتها الجليلة الإنسانية تفرض عليها أن تقدم للمحتاج ما باستطاعتها لإسعادكم. ثق بجهودنا أنكما ستتقابلان يوما ما لو تلقينا منكما صريح ماضيكما.

ومن كماضينا تألم يا آنستي، الناس التي تنحدر من قمة الهرم نحو الأسفل، تنزل درجة بعد أخرى، لكني كمنبوذٍ قذفني الدهر من فوقه الى الحضيض، سأحاول جاهدا قدر الممكن أن أتعامل بإيجاب مع ما آلَ اليه حالي رجوعا الى الماضي أيام الزمن الجميل.

: كنا أسعد صديقين قبل أن نتعاطف بحبنا كلٌ نحو الآخر كحبيب جدير بالفناء لأجله، لكن هذا التناغم الحسي لم يَرُق لبعض الفاسدين فأفسدوا ما كنا نتطلع الى بنائه، لم تكن خسارتنا لبعضنا أقل خسارة من وظيفتنا المرموقة، بنينا الدائرة وطورناها وبأجهزتها الحديثة، ثم أزاحونا عن مواقعنا وأبعدونا ثم تشردنا كل في موقع.

بهيجة: أخ يوسف.. حيثما تُقَرِّبنا حثيثا لماضيك التعيس سنعيد ذاكرتك بأسرع مما تتوقع، إطمئن أننا من أجلك ومن أجل حبيبتك نجمع الليل بالنهار لنجمعكم معاً.

يوسف: أملي أنك تعلميني ولو معلومة ضئيلةٌ أين ألتقي بحبيبتي إن كانت على قيد الحياة! يا بهيجة إرحميني.

بهيجة: شارفت حدود اللقاء.. تحملتَ الكثير، والقليل الباقي إن كان صبره ثقيلا، تحَمَّله يا مهندس يوسف.

يوسف: أنا مدين لك ولكل من ساعدك بجهودك بحثا عن ذاكرتي، بكل عواطفي وجوارحي لو أعدتِني كما كنتُ لسابق

عهدي بذكرياتي، سأتحلى برداء شخصية لا تعني إلا بما ينطقه العدل دوما.

بهيجة: أُقَدِّرُ أحساسك يا أخي، أنا أكثر إشتياقا للحظة لقائكما وهو نتاج مدينتنا.

يوسف: أشتاق أن أزور مكتبها هلاّ ترافقيني غدا اليها، سأحضنك أولا ثم هي. – قطرات دموعه تنزل رغما عنه–

: أعدك أن أُنفذ ما تتمناه، لكن عندما يحين الأوان.

غريبة بحثت عن فكتوريا في أكثر من زقاق ومحل كانت ترتاده، أمام غرفتها مع قطتها، كانت تردد دوما أغنيتها التي أحبتها وتغنيها باستمرار" يا وحشني رد عليَّ إزياك سلمات" دخلت ولم تفاجأ بقدومها لأن من عادة أصحابها يزورونها دون موعد سابق، إكتسحت صمت فكتوريا بعد أن أنهت الغناء دون تبادل كلمات الترحيب واكتفت فكتوريا بهزة الرأس علامة للترحيب.

غريبة: قبل أن أبدا بأيِّ كلام أرجوك أن تحافظي على هدوئكِ، لأن ما سأقوله اليوم ليس مثلما قلته قبل الآن، هل أبدا أم لكِ رأيٌ آخر؟

: سيدتي.. كأني إبنتك، فكيفما تشائين وبماذا تتحدثين أنا كليَّ آذان صاغية ولن أُقاطع حديثك طالما أنك مستمرة. وكلي ثقة أن ما تقولينه لن يكون على حساب تعاستي، أنتِ بمثابة

أمي المرحومة أستمع لنصائحك كما يستمع الطفل لترانيم التنويم من أمه!

غريبة: إسمعيني جيداً يا دكتورة فكتوريا!

سقطت من الكرسيّ المستهلك حال نطق غريبة بإسمها وعنوانها الصريح مندهشة، من أين أتت بهذه المعلومات الصحيحة والصريحة معا، وهذا الإعتقاد قادها أن الجميع يعرفونها ويعرفون دقائق حياتها، المركز الوظيفي وسبب تركها له، وعلاقاتها الغرامية بكامل تفاصيلها، هي الآن أمام أمرين مُرَّين يكلفها حياتها، أن تقرَّ بالحقيقة قد تخدمها وتعود بذكرياتها مع مكتبها وزينته حبيبها، وإذا نكرته فإن قصاصها سيكون إقصاءَها من إهتماماتهم وتتربى على حياة التشرد والتسول. ساعدتها غريبة لتهدأ ربما الآتي سيكون الأشد صعقا إذا تجاوزت الحقيقة. وهكذا أرخت لأُذنيها نغمة حديث غريبة لتنعش ذاكرتها.

غريبة: سيتفرغ لك مكتبك حالما تثقين أن قدرات مدينتا تعمل بالمستحيل لأجل المحتاجين.

فكتوريا قبضت كفيها ببعضها تعصرها كأنها تصارع الغيرة والجرأة لتفصح الحقيقة وهم يعرفونها.

: نعم سيدتي أنا الدكتورة فكتوريا بعقلها وجسدها.

غريبة: ربما الأخ يوسف يعاني مثلك آلآم التشرد والضياع، هل أنك مشتاقة للقائه.

فكتوريا: ما هذه الأخبار المنعشة المقلقة يا سيدتي، أبِحلمٍ أنا حقاً يا أمي.

غريبة: إن تَسَنَّى لنا إحضار حبيبك لتتقابلان، فالصراحة يا دكتورة ضرورية لتستمر جهودنا لأجلكما.

يا دكتورة، إن زلاّتٍ صغيرة قد تكشف عن جرائم كبيرة. بصماتك في دائرتك شاخصة وناصعة بشهادة غالبية الأطباء المخلصين أمثالك، المرء بقدر تجاربه في الحياة بقدر ما يتفاعل مع محيطه وسجل تجاربك كفيل انك ستنتصرين وستقودين ذاتك بعودة المحبين اليك.

: سيدتي قلبي كاد أن يخرج من جنبيَّ، أأنت كل هذه المعلومات خزنتها وتعرفين تفاصيلها.! أيُّ صبر وأيُّ نفسٍ طويل تملكين يا سيدتي، ويقال أن المرأة ثرثارة بامتياز! عذرا إسمحيلي أن أركع على قدميكِ أقبلها غفرانا أَقبَلُهُ منكم.

غريبة: بالقليل من جرأة الصبر ستنالين حظ اللقاء مع حبيبك، قطعنا شوطا يكتظ بالمحاذير وخضناه بجدارة عند أول لقاء تم بيننا وكان حالك شبه ميؤوس.

فكتوريا: لا أدري، هل أبكي لأنكم أَعَدّتموني الى رشدي بعد ضياع وتشرد، ربما لا رحيم يمدني بكسرة خبز يابس ولا خرق

تستر عوراتي، بأيِّ ميزان أقيس حسناتكم وقد طالت حدود السماء، إن كانت السماء تعج بالملائكة، فأنتم ملائكتها على الأرض، ربي سامحني عن كل كلمة بذيئة نطقتها تجاه من ساعدني. –غريبة مسحت دموعها وهي تُقَبِّلُها–.

غريبة: وماذا تعرفين عن مصير يوسف، هل لا يزال يمارس وظيفته في المستشفى، أم يطوف الأزقة والطرقات بحثا عنك!

: حبيبي يوسف – رفعت يديها نحو السماء– ربّي ساعده كي يعي ما حل بنا، حبيبي يوسف، أعلم اني

قسوتُ برعونتي تجاهك فقط، بينما كالعجين كنت أتصرف مع غيرك، لو أشعلت العشرة غفرانا منك لا أستحق سماحك، بئس من غشاوة أعمت بصيرتي وكنتَ مثال الأخلاق تتمناك كل الطبيبات أن تبتسم لهنَّ.

غريبة: هل حاولتِ البحث عنه، أين يسكن، ماذا يعمل؟

فكتوريا: إن كنتَ في هذه الدنيا يا يوسف ولم تغادرها، أُمنيتي أن ألقاك وإن طال الزمن نحو شيخوختي. حبيبي يوسف، أتذكر دوما طيب رائحتك كلما كنت تنحني على مكتبي نناقش كيف نطور عملنا، حبيبي يوسف، إن كنت قريبا منّي أسرع اليَّ في الحال رجاءً.

غريبة: ربما هو الآخر يناجي الأرواح النقية ليحضروا له حبيبته. هل تتوقعين أن يلم شملكم عن قريب؟

فكتوريا: أنا التي احتاج من يحميني ويعانقني ولا أملك غيرك من معين، حبيبي يوسف، سأمسح من خارطة ذاكرتي كل المآسي حال سماعي صوتك يرن سماعة أُذني.

فكتوريا لم تعد قادرة الوقوف على رجليها ولا السيطرة على دموعها، صوت بكائها يصرخ بوجه غريبة لتعجل إحضار حبيبها في الحال إن كان ممكناً.

بين الحين والحين ترد الى هاتف غريبة رسائل تَستَعلِمُها بأخبار يوسف وشوقه لرؤية حبيبته، وتبادلهم بمثلها عن رغبة فكتوريا في مشاعرها تجاه يوسف، أي نسج محكم ومتين حاكته المجموعات بقيادة نبيل ويراقب هواتفهم عبر شبكة نظمها نافع دون أن يدون حرفا لمداخلاتهم، أفراح المجموعة تعبر بالضحكات والتصفيق شاكرين جهود غريبة وبهيجة في إزاحة الستار عن كشف مكنونات الحبيبين، وأنهما كالنحلة والزهور ينتعشان بالعبير.

جهود المندوبتين كل من غريبة وبهيجة باتت على وشك الإقرار أن الحبيبين يحنان للقاء بأسرع فرصة مناسبة.

إتجهت ماجدة بصحبة نافع لمؤازرة نشاط بهيجة وليوثق نافع آخر أقوال يوسف ليصنع منها فلما يعرضه ساعة إحتفالية لقائهما، رحب المهندس وشد على يديهما بحرارة متوسلا أن تكون زيارتهم الأخيرة قبل لقائه بحبيبته ويبكي بحرارة بين يديها.

يوسف: ما أسعد اللقاء بعد فراق مرير – وهو يبكي لحسرة اللقاء– أليس محزنا أن يكون لنا إتجاه نحو الخير ولا نستمتع به! أخذتُ جسدي حيثما أراد فكري يوم فقدتُ ذاتي من أكون، قالوا قديما " كل شيء إذا كثُرَ رخصَ إلآ العقل، فكلما كثر غلا "وأيُّ عقل يتنافس مع عقل منتسبي منظمة العم نبيل الخيرية وهي دائمة العطاء.

نافع: إهدأ قليلا أخ يوسف، تحملنا الكثير من المشقات كي نوصلكم الى ما أنتم تشاهدون، وسيكون إحتفال لقائكم عرسا بهيا ونحن أهلكم حتما.

يوسف: أعرف أنكم بجهودكم وكأنكم الجندي المجهول عالجتم أعقد معضلة ألمَت بنا، ولا يكفينا تقديم الشكر والإمتنان لجميع أفراد مدينتكم، بل أن نجعل منكم أفرادَ أُسَرِنا بعد أن فقدنا حتى الأطفال الرضع من عوائلنا، مدينتكم الوحيدة التي أجراس كنائسها تشق سهل العاصمة الكوردية بأمان واطمئنان، تكاد تكون توأم" ديانا وباطاس" بطيب أخلاق ساكنيها وهي مسقط رأسينا أنا وحبيبتي فكتوريا، سنرمز الى الهَرَم العم نبيل ربُّ اسرتنا وأنتم أشقاؤنا وشقيقاتنا لو قبلتمونا.

ماجدة: أخي يوسف.. لابل شقيقي يوسف، لا تحسبنكم أننا أفرطنا وصرفنا جهودا إستثنائية ما لم نتوقع أن نجني ثمارها كما

تشاهد، إن كنت أنت وشقيقتنا الغالية فكتوريا راغبين أن تسكنا معنا، فبيتنا يسع كل محتاج للمأوى.

: ولأنني أتقن عمل لوحات ضوئية، عهدا مني أن أجسد جهود جميعكم ضمن بانوراما أنصبها وبفخرٍ أمام الكنيسة.

نافع: قبل قدومي اليك شقيقي يوسف، إتجهت مجموعة أخرى تجاه فكتوريا لنفس السبب، ربما هي الأشوق للقائك، كانت تبكي دون دمع بل بالدماء التي إنحسرت في شراييها، وكلما كانت تحاول النطق كانت تفشل حنجرتها لأنها غريقة بالدموع التي إنسابت اليها، هكذا أخبرتني أمي، والعمة صوفيا هي الأخرى متواجدة معها ليصبرنها على حرارة إشتياقها لك.

دفن يوسف وجهه بكفيه وهو يبكي ليس على حاله، بل عطفا مع آلام فكتوريا النفسية.

: أبكي على وضع حبيبتي وليس لديها كصدر أمها تسند عليه ثقل هموم رأسها. أيُّ زمن قاسٍ إخترقناه ولا زلنا أحياء، وهذا كله بفضل حرصكم على نذر تقدمونه للمحتاجين أمثالنا. الذي أرجوه متوسلا لأن ينوب الأب نبيل أبا لكلينا أثنا مراسيم الزواج.

في الطرف الآخر من جبهة الإنقاذ، غريبة وصوفية يجاهدان باستماتة يصبرن فكتوريا أن المأساة أوشكت على الإنتهاء، عبر شبكة نصبها نافع، المجموعات الثلاث تشاهد الفديو بالبث

المباشر، كل من الحبيبين صوتُ بكائهما يهز الجهاز وكل منهم يبكي لأجل الآخر وينفث قبلاته تجاه الآخر ويبادلون الفعل بالفعل. لا لعشق مجنون ليلى ولا غرام روميو جوليت يقاس بهيام يوسف فكتوريا، لم يكن حبهما مكبوتا لأنهما لم يقبلا أحدهما الآخر، بل مارسا عشقا عذريا وجدانيا.

يوسف: حبيبتي وروحي فكتوريا، إن كنتُ قد قسوتُ عليكِ بكلمة أقل من حلاوة السكر، سأركع عند قدميك، سامحيني حبيبتي، ليس لي في هذه الدنيا سواك ومع هذه النخبة الطيبة، عمي.. أو بالأحرى أبي نبيل.. أتشرف بأبوتك إن حضنتني تحت خيمتك، لستُ مطلوبا لكم بأقل من دمي سأسكبه لأجلكم حيثما شِئت نذرا لأجل كرمكم.

من الجانب الآخر تتناوب غريبة وصوفيا في مسح عيون فكتوريا وكأنها تفيض بالدموع بعد أن شاهدت صورته وسمعت صوته.

فكتوريا: أين أنت يا حبيبي لأهرع اليك، أتوسل اليكم يا جماعة الخير هاتوا لي عزيزي وحبيبي يوسف المهندس، سامحني يا حبيبي على قسوتي تجاهك، عهدا منّي أن أُعَوِّضك حنان فقدان أهالينا، إن كانت لي والدة واحدة أنجبتني من رحمها، أحمد ربي على نعمته جعلني بنتا لأُمَّينِ حنينتين، ماما غريبة وماما صوفيا، سأسند رأسي بالتناوب على صدريهما،

حبيبي يوسف.. ربيتُ شعري كي أمسح به دموعك، لن أغازلك منذ اليوم كحبيب فقط، أنت الأب والأم الزوج والأخ والإبن، إن شئتني، أبي العزيز نبيل.. حسناتكم طالت السماء والملائكة تنثرها بين الأديرة لينال منها العطشى والجياع ، إجعلونا ونحن نفتخر أن نكون من أفراد أسرِكم.

نبيل: للحبيبين العزيزين أولاً، بيتي وصدري والعزيزة غريبة واولادي يتشرفون بكم أنكم جزء مهم ومتممً لكيان أسرتنا، الذي بدأناه منذ قرابة الشهرين أو أكثر، عن أول إتصالنا بكم وأنتم متشردون، عاهدنا ثم تبرعنا بجهودنا، شابات وشبان أن نتقرب منكم ونطّلِع على نوعية مأساتكم، وإن كنتم في البدء متشتتي الأفكار، لكن لاحقا وبجهود أفراد مجموعتنا بقيادة الشابة بهيجة شخصنا البداية التي تابعناها وقادتنا الى المتابعة الحثيثة والمستمرة في إستخلاص مباديء في غاية الأهمية لنتقرب الى عواطفكم، وأنتم لا تحسون بما آليتم اليه.

بهيجة: عم نبيل.. حان الآن أن نبدا لتنفيذ الخطة القادمة، وستكون قبل الأخيرة إستنادا الى برنامجنا الرئيسي، هل تأذن لنا القيام بها الآن. أرجو عدم المماطلة لأن الجماعة متلهفة لساعة اللقاء المبارك كي نستمتع معهما حرارة العناق مرفقة بدموع إشتياق اللقاء الحامي.

يوسف: وهو ما نشتاق اليه عزيزتي بهيجة، عمي نبيل، لنبدأ المشوار الأخير في رحلة اللقاء، وبحضوركم سنعلن إتمام فرحتنا أنا وحبيبتي فكتوريا.

فكتوريا: حبيبي يوسف، أتراني أرتدي زي العروس! انه هدية من أفراد أسرتنا الجديدة وبتصميم الأخت ماجدة ومن معها من أحبابنا.

في الكنيسة حيث مكان التجمع ينتظرهم الكاهن ورئيس مجلس أعيان المدينة ومسؤول أمن البلدة مع نخبة من أجهزة الأمن وسيارة الإسعاف برفقة بعض منتسبي المستشفى، تقدم موكب المجموعات الثلاث كل من موقعه، القائد العم نبيل بحلته العسكرية الجديدة بعد أن أُعيد الى الخدمة، عانق الحبيبين بحرارة واختلطت دموعهم، إستقبل جمهور الكنيسة موكب العرس بحفاوة وكأنهم جميعهم أهل العروسين.

الكل بهدوء وسكوت جلسوا أمام المذبح، عانق يوسف خصر حبيبته متوجها صوب المذبح، الكاهن والشمامسة ومساعدوه يتلون صلوات الزفاف بعد أن شد يوسف يد حبيبته والبسها الخاتم، بعد إتمام المراسيم تعالت الهلاهل والزغاريد بالتهاني للعروسين، قبل يوسف جبين زوجته، توجه العم نبيل ليهنيئهما، ركع الزوجان عند قدميه بالبكاء يدعوان القديسين أن يحفظه ومن معه من جنود الخير.

بأمر من القائد توجه كامل موكب العروسين يصاحبهما موكب الكنيسة الى المستشفى وسيارة الإسعاف عبر مكبرات صوتها أطلقت أغنية "جينا وجبنا العروسة "، هناك نُظِّم في صالة كبيرة إحتفالٌ مهيب لإعادة فكتوريا الى منصبها مديرة لنفس المستشفى ويوسف بمنصب مساعدها كسابق عهده مع الأجهزة، وفي نهاية الإحتفال بث نافع الفديو الذي وثقه عن المشردين، حياة مليئة بالمآسي والنكبات وبكل تفاصيلها ساعة دخولهم مدينتهم، الكل إندهشوا هل أن الذي يشاهدونه هو حقيقة أم عبقرية نافع أخرجته بهكذا تراجيديا مؤلمة، الزوجان بإستغراب ينظران كل الى الآخر، هل حقا أنهما مرّا بهكذا فصول مؤلمة، فقد الإثنان سيطرتهما على دموعهما وكل منهما يمسح دموع الآخر، نعم الذين أنقذوهم هم بمثابة القديسين بكل المقاييس، ألأم القديسة تيريزا كانت شاخصة لكل عمل قامت به المجموعة لأجل الغرباء المحتاجين.

قدم رئيس مجلس أعيان البلدة درع المدينة للمبدع نافع على توثيقه حياة هذين الشخصين الرائعين، ودرعا آخر الى بهيجة لدورها المتميز في طمأنة المشردين بحسن نواياها، سار رئيس المجلس وبرفقة القائد والكاهن ومسؤول أمن البلدة وجميع أفراد الموكب نحو غرفة مدير المستشفى ونصبوا الدكتورة فكتوريا مديرة لها، توجه الموكب بعدها الى غرفة المساعد ونصبوا

يوسف المسؤول عنها، نظفت الإدارة الجديدة للبلدة والمستشفى كل مرافقها من بؤر الفساد، كان القائد نبيل وكلما سنحت له الفرصة يتفقد المستشفى ليتأكد أن الإدارة الجديدة تؤدي مهامها بإقتدار، لم يعد لنا وجود سوى تقديم الشكر والإعتزاز لكامل ممثلي المدينة الفاضلة..

تمت

٢٠١٩